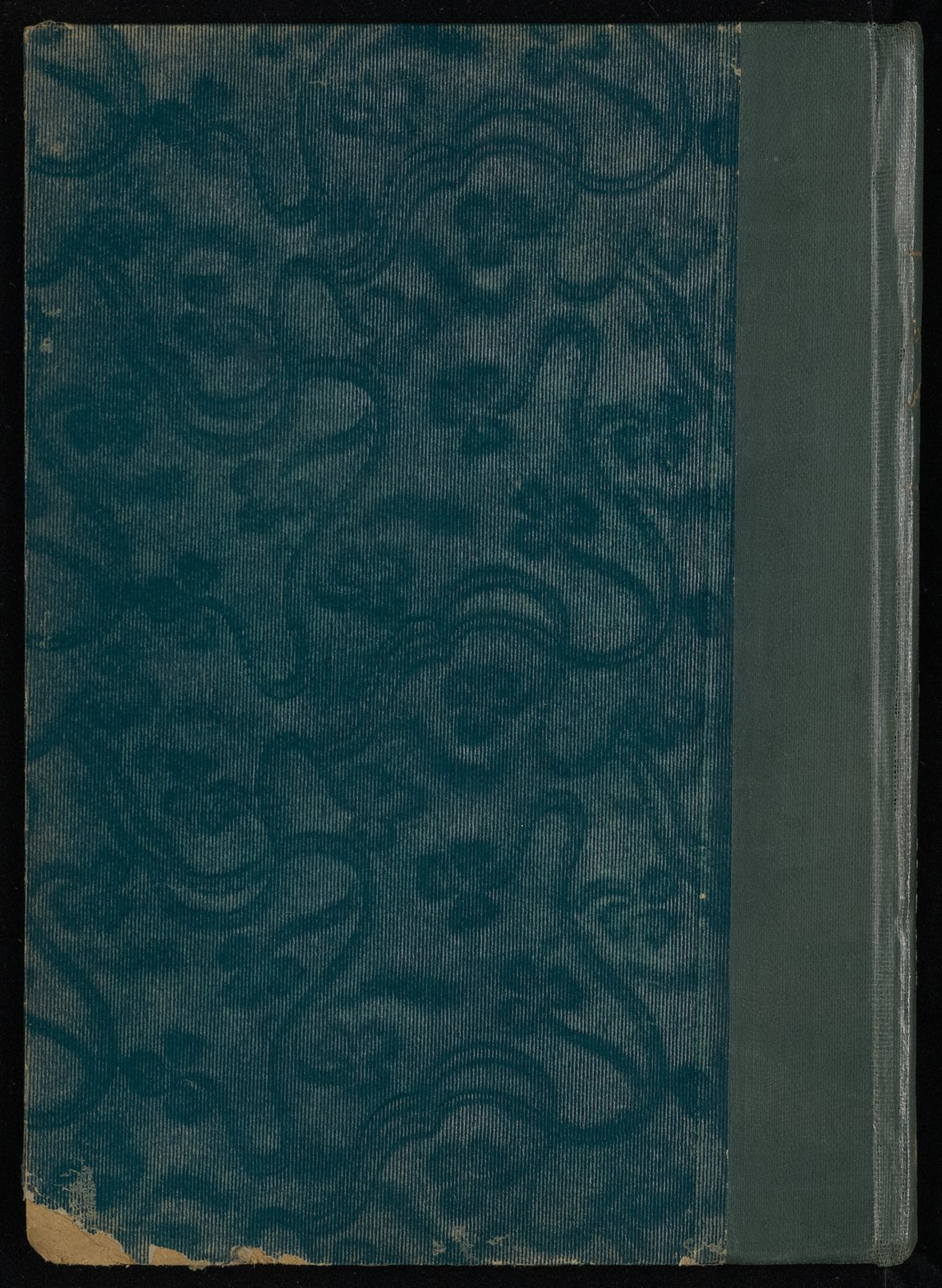


Columbia University
in the City of New York

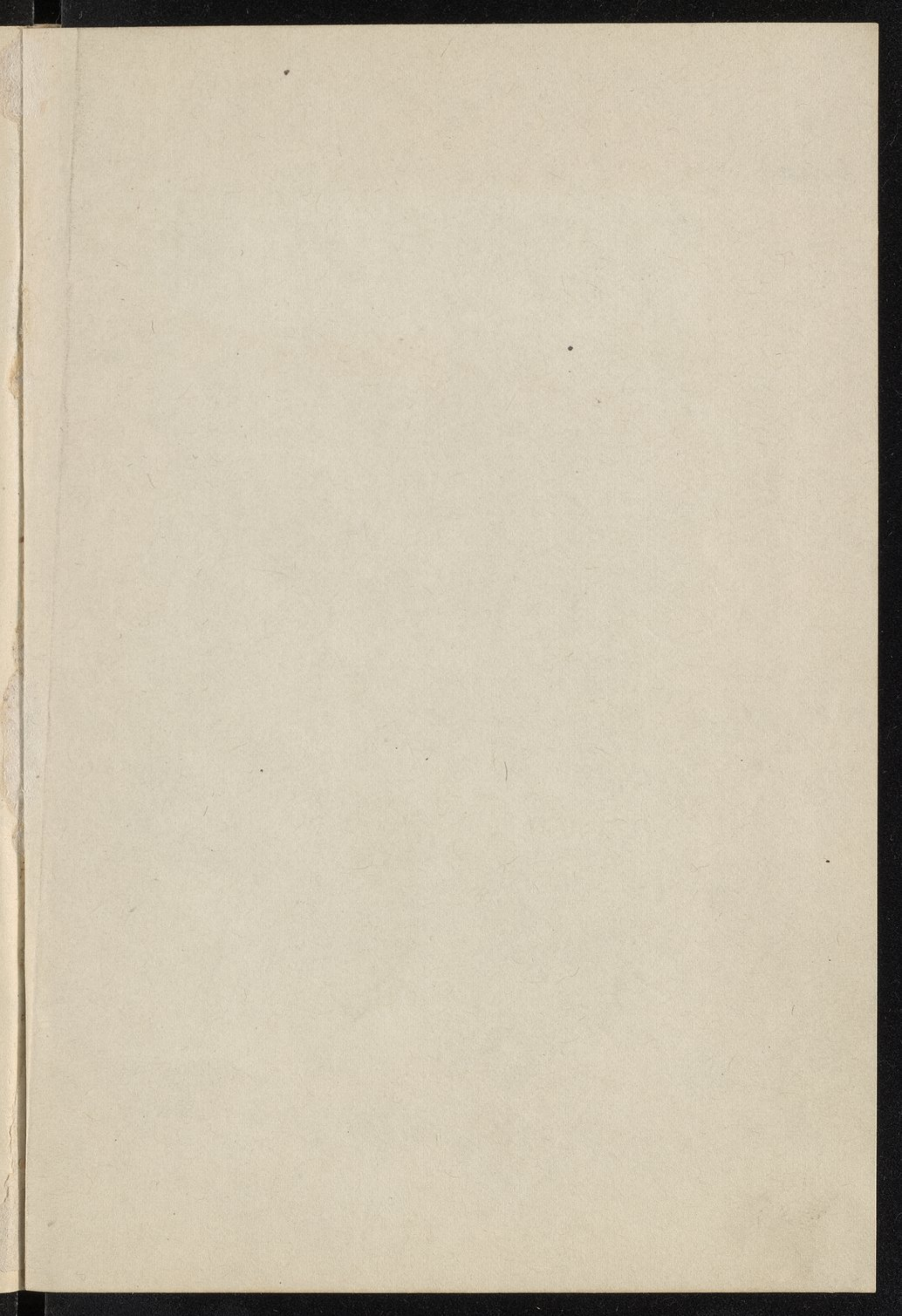
THE LIBRARIES



W. Arthur Jeffery

Arthur Jeffery

New York. 1936.



تفسير سورة الإخلاص

تأليف

شيخ الامة واستاذ الأئمة ، حافظ الانام ، وعلم الاعلام
مفتى مصر والشام وسائر اقطار الاسلام ابى العباس
تقى الدين احمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية
الحرانى الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ



صحح وراجع اصوله للمرة الأولى سنة ١٣٥٢ هـ

إدارة الطباعة المنيرية
لصاحبها ومديرها محمد منير الدمشقى

درب الاتراك رقم ١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما *

﴿فصل﴾ فى تفسير (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) والاسم الصمد فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب * والمشهور منها قولان: أحدهما ان الصمد هو الذى لاجوف له . والثانى أنه السيد الذى يصمد اليه فى الحوائج والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة * والثانى قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها فى كتب التفسير المسندة وفى كتب السنة وغير ذلك، وقد كتبنا من الآثار فى ذلك شيئا كثيرا باسناده فيما تقدم وتفسير الصمد بأنه الذى لاجوف له معروف عن ابن مسعود موقوفا ومرفوعا وعن ابن عباس والحسن البصرى. ومجاهد. وسعيد بن جبير . وعكرمة والضحاك والسدى وقتادة وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال: هو الذى لاحشو له وكذلك قال ابن مسعود: هو الذى ليست له أحشاء وكذلك قال الشعبى: هو الذى لايأكل ولايشرب ، وعن محمد بن كعب القرظى وعكرمة هو الذى لايخرج

منه شيء وعن ميسرة قال هو المصمت قال ابن قتيبة كأن الدال في هذا التفسير مبدلة من تاء والصمت من هذا * قلت لا إبدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر وسنبين إن شاء الله وجه هذا القول من جهة الاشتقاق واللغة ، والحديث المأثور في سبب نزول هذه الآية رواه الامام أحمد في المسند وغيره من حديث أبي سعد الصغاني حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب ان المشركين قالوا لرسول الله ﷺ إنسب لنا ربك فأنزل الله (قل هو الله أحد الله الصمد) الى آخر السورة * قال الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد الا سيموت وليس شيء يموت الا سيورث وان الله لا يموت ولا يورث *

وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد اليه في الحوائج فهذا أيضا مروى عن ابن عباس موقوفا ومرفوعا فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس قال: الصمد السيد الذي كمل في سؤدده وهذا مشهور عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: هو السيد الذي انتهى سؤدده، وعن أبي اسحق الكوفي عن عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد ويروى هذا عن علي وعن كعب الاحبار الذي لا يكافئه من خلقه أحد وعن السدّي أيضا هو المقصود اليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب، وعن أبي هريرة رضي الله عنه هو المستغني عن كل أحد المحتاج اليه كل أحد ، وعن سعيد بن جبير الكامل في جميع صفاته وأفعاله وعن الربيع الذي لا تعتريه الآفات وعن مقاتل بن حيان الذي لا عيب فيه وعن ابن كيسان هو الذي لا يوصف بصفته أحد قال أبو بكر الانباري: لا خلاف بين أهل اللغة ان الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد اليه الناس في حوائجهم وأمورهم * وقال الزجاج هو الذي ينتهي اليه السؤدد فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده وتأويل صمود كل شيء له ان في كل

شيء أثر صنعته * قلت وقد أنشدوا فى هذا بيتين مشهورين أحدهما *

الا بكر الناعى بخيرى بنى أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

(وقال الآخر)

علوته بحسامى ثم قلت له   خذها حذيف فأنت السيد الصمد

قال بعض أهل اللغة الصمد هو السيد المقصود فى الحوائج تقول العرب صمدت فلانا أصمده - بكسر الميم - وأصمده - بضم الميم - صمدا - بسكون الميم - اذا قصدته ، والمصمود صمد كالقبض بمعنى المقبوض والنقض بمعنى المنقوض ويقال بيت مصمود ومصمد اذا قصده الناس فى حوائجهم قال طرفة:

وان يلتق الحى الجميع تلاقنى   الى ذروة البيت الرفيع المصمد

وقال الجوهرى: صمده يصمده صمداً اذا قصده والصمد بالتحريك السيد لانه يصمد اليه فى الحوائج ويقال بيت مصمد بالتشديد أى مقصود، وقال الخطابى أصح الوجوه انه السيد الذى يصمد اليه فى الحوائج لان الاشتقاق يشهد له فان أصل الصمد القصد يقال أصمد صمد فلان أى أقصد قصده فالصمد السيد الذى يصمد اليه فى الامور ويقصد فى الحوائج، وقال قتادة: الصمد الباقى بعد خلقه وقال مجاهد . ومعمر: هو الدائم وقد جعل الخطابى وأبو الفرج ابن الجوزى الاقوال فيه أربعة هذين واللذين تقدما وسنبين ان شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية، وعن مرة الهمدانى هو الذى لا يبلى ولا يفنى وعنه أيضا قال هو الذى يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه * وقال ابن عطاء : هو المتعالى عن الكون والفساد وعنه أيضا قال: الصمد الذى لم يتبين عليه أثر فيما أظهر يريد قوله : (وما مسنا من لغوب) وقال الحسين بن الفضل: هو الازلى بلا ابتداء وقال محمد بن على الحكيم الترمذى: هو الاول بلا عدد والباقى بلا أمد والقائم بلا عمد ، وقال أيضا الصمد الذى لا تدركه الابصار

ولا تحويه الافكار ولا تبلغه الاقطار وكل شيء عنده بمقدار وقيل هو الذي جل عن شبه المصورين وقيل هو بمعنى نفي التجزي والتأليف عن ذاته وهذا قول كثير من أهل الكلام وقيل هو الذي أيست العقول من الاطلاع على كيفيته وكذلك قيل هو الذي لاتدرك حقيقة نعوته وصفاته فلايتسع له اللسان ولايشير اليه البنان، وقيل الذي لم يعط خلقه من معرفته الاالاسم والصفة، وعن الجنيد قال الذي لم يجعل لاعدائه سبيلا الى معرفته ونحن نذكر ماحضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها فروى ابن أبي حاتم في تفسيره قال: ثنا أبي ثنا محمد بن موسى بن نفيع الجرشي ثنا عبد الله بن عيسى يعني أبا خلف الخزاز ثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في قوله الصمد قال الصمد الذي يصمد اليه الناس الاشياء اذا نزل بهم كربة أو بلاء *

حدثنا أبو زرعة ثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسي ثنا محمد بن سواء ثنا سعيد بن أبي عروبة عن أبي معشر عن ابراهيم قال الصمد الذي يصمد العباد اليه في حوائجهم * حدثنا أبي ثنا عبد الرحمن بن الضحاك ثنا شريك ابن عبد العزيز ثنا سفيان بن حسين عن الحسن قال الصمد الحي القيوم الذي لازوال له * حدثنا أبي ثنا نصر بن علي ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة عن الحسن قال الصمد الباقي بعد خلقه وهو قول قتادة * حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا ابن نمير عن الأعمش عن شقيق في قوله الصمد قال السيد الذي قد انتهى سؤدده *

حدثنا أبي ثنا أبو صالح ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله الصمد قال: السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد وهو الله سبحانه هذه صفته

لا تنبغي لأحد إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار *

حدثنا كثير بن شهاب المذحجي القزويني ثنا محمد بن سعيد بن سابق ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في قوله الصمد قال الذي لم يلد ولم يولد * حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا ابن علية عن أبي رجاء عن عكرمة في قوله الصمد قال الذي لم يخرج منه شيء * حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا أبو أحمد ثنا مندل بن علي عن أبي روق عطية بن الحارث عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن مسعود قال الصمد الذي ليس له أحشاء وروى عن سعيد ابن المسيب مثله *

حدثنا أبي ثنا محمد بن عمر بن عبد الله الرومي ثنا عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش عن صالح بن حيان عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال لا أعلمه إلا قد رفعه قال: الصمد الذي لا جوف له وروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود في إحدى الروايات والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير ومجاهد في إحدى الروايات والضحاك مثل ذلك حدثنا أبي ثنا قبيصة ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال الصمد المصمت الذي لا جوف له *

حدثنا أبو عبد الله الطهراني ثنا حفص بن عمر العدني ثنا الحكم بن أبان عن عكرمة في قوله الصمد قال الصمد الذي لا يطعم * حدثنا أبي ثنا علي بن هاشم بن مرزوق ثنا هشيم عن اسمعيل بن أبي خالد عن الشعبي أنه قال الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب الشراب * حدثنا أبي وأبو زرعة قالا ثنا أحمد بن منيع ثنا محمد ابن ميسر - يعني أبا سعد الصغاني - ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب في قوله الصمد قال الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يلد إلا يموت وليس شيء يموت إلا يورث وإن الله

لايموت ولايورث ولم يكن له كفواً أحد قال لم يكن له شبه ولا عدل وليس
كمثله شيء * حدثنا علي بن الحسين ثنا محمود بن خداش ثنا أبو سعد الصغاني
ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب
ان المشركين قالوا إنسب لنا ربك فأنزل الله هذه السورة * حدثنا أبو زرعة
ثنا العباس بن الوليد ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة ولم يكن له
كفوًا أحد قال ان الله لايكافئه من خلقه أحد * حدثنا علي بن الحصين ثنا
أبو عبد الله الجرشي ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى ثنا داود بن أبي هند
عن عكرمة عن ابن عباس قال إن اليهود جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم منهم كعب
ابن الأشرف وحيي بن أخطب وجدي بن أخطب فقالوا: يا محمد صف لنا
ربك الذي بعثك فأنزل الله (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد) فيخرج ابنه
الولد (ولم يولد) فيخرج منه شيء ، وقال ابن جرير الطبري في تفسيره: حدثنا
احمد بن منيع المروزي . ومحمود بن خداش الطالقاني فذكر مثل اسناد ابن
أبي حاتم عن أبيّ بن كعب سؤال المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم إنسب لنا ربك
فأنزل الله (قل هو الله أحد) * حدثنا ابن حميد ثنا يحيى بن واضح ثنا الحسين
عن يزيد عن عكرمة ان المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن
صفة ربك ماهو ومن أي شيء هو ؟ فأنزل الله هذه السورة ورواه أيضا
عن أبي العالية وعن جابر بن عبد الله حدثنا شريح ثنا اسمعيل بن مجاهد
عن الشعبي عن جابر فذكره قال وقيل هو من سؤال اليهود * حدثنا ابن حميد
ثنا سلمة ثنا ابن اسحق عن محمد بن سعيد قال أتى رهط من اليهود الى النبي
صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم
حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضبا لربه فجاءه جبريل فسكنه وقال اخفض
عليك جناحك يا محمد وجاءه من الله جواب ماسألوه عنه قال يقول الله

(قل هو الله أحد) الى آخرها فلما تلاها عليهم النبى ﷺ قالوا له صف لنا ربك كيف خلقه كيف عضده كيف ساعده و كيف ذراعه فغضب النبى ﷺ أشد من غضبه الأول وساورهم فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته الأولى وأتاه بجواب ماسألوه فانزل الله (وماقدروا الله حق قدره) *

وروى الحكم بن معبد فى كتاب الرد على الجهمية قال ثنا عبد الله بن محمد بن النعمان ثنا سلمة بن شبيب ثنى يحيى بن عبد الله ثنى ضرار عن أبان عن أنس قال أتت يهود خيبر الى النبى ﷺ فقالوا يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون وإبليس من لهب النار والسماء من دخان والأرض من زبد الماء فاخبرنا عن ربك قال فلم يجبهم النبى ﷺ فأتاه جبريل فقال يامحمد: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ليس له عروق شعب اليها ـ الصمد ـ ليس بأجوف لا يأكل لايشرب ليس شىء يعتدل مكانه يمسك السموات والأرض أن تزولا الحديث، وقال ابن جرير ثنا عبد الرحمن بن الأسود ثنا محمد بن ربيعة عن سلمة بن سابور عن عطية عن ابن عباس قال الصمد الذى ليس بأجوف *

حدثنا ابن بشار ثنا عبد الرحمن ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد الصمد المصمت الذى لا جوف له * حدثنا أبو كريب ثنا وكيع عن منصور سواء *

حدثنا الحارث ثنا الحسن ثنا ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مثله *

حدثنا ابن بشار ثنا عبد الرحمن ثنا الربيع بن مسلمة عن الحسن قال الصمد الذى لا جوف له وهذا الاسناد عن ابراهيم بن ميسرة قال أرسلنى مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن الصمد فقال الذى لا جوف له * حدثنا ابن بشار ثنا يحيى ثنا اسمعيل بن أبى خالد عن الشعبى قال الصمد الذى لا يطعم الطعام ورواه يعقوب عن هشيم عن إسمعيل عنه قال لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب *

حدثنا بشار . وزيد بن أخزم قالا ثنا ابن داود عن المستقيم بن
عبد الملك عن سعيد بن المسيب قال الصمد الذى لاحشو له * حدثنا الحسين
ثنا أبو معاذ ثنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول الصمد الذى لاجوف له *
وروى عن ابن بريدة فيه حديثا مرفوعا لكنه ضعيف قال وقال آخرون
هو الذى لايخرج منه شيء * حدثنا يعقوب بن أبى علية عن أبى رجاء سمعت
عكرمة قال فى قوله الصمد لم يخرج منه شيء لم يلد ولم يولد * حدثنا ابن
بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبى رجاء محمد بن يوسف عن عكرمة
قال الصمد الذى لايخرج منه شيء *

وقال آخرون لم يلد ولم يولد وذكر حديث أبى بن كعب الذى رواه
ابن أبى حاتم والذى فيه انه سبحانه لايموت ولايورث قال وقال آخرون
هو السيد الذى انتهى فى سؤدده * وقال وثنا أبو السائب ثنا أبو معاوية
عن الاعمش عن شقيق قال الصمد هو السيد الذى انتهى فى سؤدده *
حدثنا أبو كريب . وابن بشار . وابن عبد الاعلى قالوا ثنا وكيع عن الاعمش
عن أبى وائل قال الصمد السيد الذى انتهى فى سؤدده * حدثنا ابن حميد
ثنا مهران عن سفيان عن الاعمش عن أبى وائل مثله * حدثنا أبو صالح
ثنا معاوية عن على عن ابن عباس فى قوله الصمد قال السيد الذى كمل فى
سؤدده وذكر مثل الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم كما تقدم ﴿قلت﴾ الاشتقاق
يشهد للقولين جميعا قول من قال ان الصمد الذى لاجوف له وقول من قال
انه السيد وهو على الأول أدل فان الاول أصل للثانى ولفظ الصمد يقال
على مالا جوف له فى اللغة * قال يحيى بن أبى كثير الملائكة صمد والآدميون
جوف ، وفى حديث آدم ان ابليس قال عنه انه أجوف ليس بصمد * وقال
الجوهرى المصمد لغة فى المصمت وهو الذى لاجوف له * قال والصماد

عفاص القارورة * وقال الصمد المكان المرتفع الغليظ قال أبو النجم:

* يغادر الصمد كظهر الاجزل *

وأصل هذه المادة الجمع والقوة ومنه يقال يصمد المال أى يجمعه وكذلك السيد أصله سيود اجتمعت ياء وواو وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت كما قيل ميت وأصله ميوت والمادة فى السواد والسؤدد تدل على الجمع واللون الاسود هو الجامع للبصر وقد قال تعالى: (وسيدا وحصورا) قال أكثر السلف سيدا حليما وكذلك يروى عن الحسن . وسعيد بن جبير . وعكرمة . وعطاء . وأبى الشعثاء بن أنس . ومقاتل، وقال أبو روق عن الضحاك انه الحسن الخلق * وروى سالم عن سعيد بن جبير انه التقى ولا يسود الرجل الناس حتى يكون فى نفسه مجتمع الخلق ثابتا * وقال عبد الله بن عمر مارأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية فقيل له ولا أبو بكر ولا عمر قال كان أبو بكر وعمر خيرا منه ومارأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسود من معاوية * قال أحمد بن حنبل: يعنى به الحلم أو قال الكرم ولهذا قيل:

اذا شئت يوما ان تسود قبيلة ... فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بانه سيد قومه فى الدين وقال ابن زيد هو الشريف وقال الزجاج الذى يفوق قومه فى الخير، وقال ابن الانبارى السيد هنا الرئيس والامام فى الخير، وعن ابن عباس ومجاهد هو الكريم على ربه وعن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم وقد تقدم انهم يقولون لعفاص القارورة صماد قال الجوهرى العفاص جلد يلبسه رأس القارورة وأما الذى يدخل فى فمه فهو الصمام وقد عفصت القارورة شددت عليها العفاص ﴿قلت﴾ وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ فى اللقطة « ثم اعرف

عفاصها ووكاءها) والمراد بالعفاص مايكون فيه الدراهم كالخرقة التى تربط فيها الدراهم والوكاء مثل الخيط الذى يربط به وهذا من جنس عفاص القارورة ولفظ العفص والسد والصمد والجمع والسؤدد معانيها متشابهة فيها الجمع القوة ويقال طعام عفص وفيه عفوصة أى تقبض ومنه العفص الذى يتخذ منه الحبر * وقد قال الجوهرى : هو مولد ليس من كلام أهل البادية وهذا لا يضر لانه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب و كذلك تسميتهم لما يدخل فى فمها صمام فان هذه المادة فيها معنى الجمع والسد * قال الجوهرى صمام القارورة سدادها والحجر الاصم الصلب المصمت والرجل الاصم هو الذى لا يسمع لانسداد سمعه والرجل الصمة الشجاع والصمة الذكر من الحيات وصم الشىء خالصه حيث لم يدخل اليه مايفوقه ويضعفه يقال صميم الحر وصميم البرد وفلان من صميم قومه ، والصمصام الصارم القاطع الذى لا ينثنى وصمم فى السير وغيره أى مضى ورجل صمصم أى غليظ ومنه فى الاشتقاق الأكبر الصوم فان الصوم هو الامساك ، قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم لان الامساك فيه اجتماع والصائم لا يدخل جوفه شىء ، ويقال صام الفرس اذا قام فى غير اعتلاف ، قال النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وكذلك السد والسداد والسؤدد والسواد وكذلك لفظ الصمد فيه الجمع والجمع فيه القوة فان الشىء كلما اجتمع بعضه الى بعض ولم يكن فيه خلل كان أقوى مما إذا كان فيه خلو * ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع صمد لقوته وتماسكه واجتماع أجزائه والرجل الصمد هو السيد المصمود أى المقصود يقال قصدته وقصدت له وقصدت اليه وكذلك هو مصمود

ومقصود له واليه والناس انما يقصدون فى حوائجهم من يقوم بها وانما يقوم بها من يكون فى نفسه مجتمعا قويا ثابتا وهو السيد الكريم بخلاف من يكون هلوعا جزوعا يتفرق و يعلق ويتمزق من كثرة حوائجهم وثقلها فان هذا ليس بسيد صمد يصمدون اليه فى حوائجهم فهم إنما سموا السيد من الناس صمدا لما فيه من المعنى الذى لأجله يقصده الناس فى حوائجهم فليس معنى السيد فى لغتهم معنى اضافى فقط كلفظ القرب والبعد بل هو معنى قائم بالسيد لأجله يقصده الناس والسيد من السؤدد والسواد وهذا من جنس السداد فى الاشتقاق الأكبر فان العرب تعاقب بين حرف العلة والحرف المضاعف كما يقولون تقضى البازى و تقضض والساد هو الذى يسد غيره فلا يبقى فيه خلوا ومنه سداد القارورة وسداد الثغر بالكسر فيهما وهو مايسد ذلك ومنه السداد بالفتح وهو الصواب ومنه القول السديد قال الله تعالى: (اتقوا الله وقولوا قولا سديدا)قالوا قصدا حقا ، وعن ابن عباس صوابا وعن قتادة ومقاتل عدلا وعن السدى مستقيما وكل هذه الاقوال صحيح فان القول السديد هو المطابق الموافق فان كان خبراً كان صدقا مطابقا لمخبره لايزيد ولاينقص وان كان أمراً كان أمراً بالعدل الذى لايزيد ولاينقص ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل قال الجوهرى: التسديد التوفيق للسداد وهو الصواب والقصد فى القول والعمل ورجل مسدد اذا كان يعمل بالسداد والقصد والمسدد المقوم وسدد رمحه وأمر سديد وأسد أى قاصد وقد استد الشىء استقام قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رمانى

وقال الاصمعى اشتد بالشين المعجمة ليس بشىء وتعبيرهم عن السداد بالقصد يدلك على ان لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة والقصد العدل كما

أنه السداد والصواب وهو المطابق الموافق الذى لا يزيد ولا ينقص وهذا هو الجامع المطابق، ومنه قوله تعالى (وعلى الله قصد السبيل) أى السبيل القصد وهو السبيل العدل أى اليه تنتهى السبيل العادلة كما قال تعالى : (إن علينا للهدى) أى الهدى الينا هذا أصح الاقوال فى الآيتين وكذلك قوله تعالى : (قال هذا صراط علىّ مستقيم) ومنه فى الاشتقاق الاوسط الصدق فان حروفه حروف القصد فمنه الصدق فى الحديث لمطابقته مخبره كما قيل فى السديد والصدق بالفتح الصلب من الرماح ويقال المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل ولا عوج والصندوق واحد الصناديق فانه يجمع ما يوضع فيه ومما ينبغى أن يعرف فى باب الاشتقاق أنه اذا قيل هذا مشتق من هذا فله معنيان أحدهما ان بين القولين تناسبا فى اللفظ والمعنى سواء كان اهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذ بعد هذا وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الآخر فان المقصود أنه مناسب له لفظا ومعنى كما يقال هذا الماء من هذا الماء وهذا الكلام من هذا الكلام وعلى هذا فاذا قيل ان الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل كان كلا القولين صحيحا وهذا هو الاشتقاق الذى يقوم عليه دليل التصريف وأما المعنى الثانى فى الاشتقاق وهو أن يكون أحدهما أصلا للآخر فهذا اذا عنى به ان أحدهما تكلم به قبل الآخر لم يقم على هذا دليل فى الاكثر من المواضع وان عنى به ان أحدهما متقدم على الآخر فى العقل لكون هذا مفردا وهذا مركبا فالفعل مشتق من المصدر والاشتقاق الاصغر اتفاق القولين فى الحروف وترتيبها والاوسط اتفاقهما فى الحروف لا فى الترتيب والاكبر اتفاقهما فى أعيان بعض الحروف وفى الجنس فى الباقى كاتفاقهما فى كونهما من حروف الحلق اذا قيل حزر وعزر وازر فان الجميع فيه معنى القوة والشدة قد اشتركت

الراء والزاى والحاء فى ان الثلاثة حروف حلقية وعلى هذا فاذا قيل الصمد بمعنى المصمت وانه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح فان الدال أخت التاء فى ان الصمت السكوت وهو امساك واطباق للفم عن الكلام *

قال أبو عبيد المصمت الذى لا جوف له وقد أصمته أنا وباب مصمت قد أبهم اغلاقه والمصمت من الخيل البهم أى لون كان لا يخالط لونه لون آخر، ومنه قول ابن عباس انما حرم من الحرير المصمت فالمصمد والمصمت متفقان فى الاشتقاق الاكبر وليست الدال منقلبة عن التاء بل الدال أقوى والمصمد أكمل فى معناه من المصمت وكلما قوى الحرف كان معناه أقوى فان لغة العرب فى غاية الاحكام والتناسب ولهذا كان الصمت امساك عن الكلام مع امكانه والانسان أجوف يخرج الكلام من فيه لكنه قد يصمت بخلاف الصمد فانه انما استعمل فيما لا تفرق فيه كالصمد والسيد والصمد من الارض وصماد القارورة *

ونحو ذلك فليس فى هذه الالفاظ المتناسبة أكمل من ألفاظ الصمد فان فيه الصاد والميم والدال وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ما يناسبها من الحروف والمعانى المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل *

ومما يناسب هذه المعانى معنى الصبر فان الصبر فيه جمع وإمساك ولهذا قيل: الصبر حبس النفس عن الجزع يقال صبر وصبرته أنا ومنه قوله تعالى (واصبر نفسك) وكذلك معنى السيد الصمد خلاف معنى الجزوع المنوع ومنه الصبرة من الطعام فانها مجتمعة مكومة والصبارة الحجارة وصبر الشىء غلظه وضده الجزع وفيه معنى التقطع والتفرق يقال جزع له جزعة من المال أى قطع له قطعة والجزوعة القطعة من الغنم واجتزعت من الشجر عودا أى اقتطعته واكتسرته وجزعت الوادى اذا قطعته عرضا والجزع منعطف الوادى ومنه الجزع وهو الخرز اليمانى الذى فيه بياض وسواد وكذلك

جزع البسر تجزيعا اذا أرطب نصفه ثلثاه وهو خلاف قولهم مصمت للون الواحد لما فى ذلك من الاجتماع وفى هذا من التفرق ﴿ وقد قال تعالى (ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) قال الجوهرى: الهلع أفحش الجزع وقال غيره هو فى اللغة أشد الحرص واسوأ الجزع ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم شر مافى المرء شح هالع وجبن خالع ﴿ وناقة هلواع اذا كانت سريعة السير خفيفة وذئب هلع بلع والهلع من الحرص والبلع من الابتلاع ولهذا كان كلام السلف فى تفسيره يتضمن هذه المعانى فروى عن ابن عباس قال هو الذى اذامسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا ، وروى عنه انه قال هو الحريص على مالا يحل له وعن سعيد ابن جبير شحيحا وعن عكرمة ضجورا وعن جعفر حريصا وعن الحسن والضحاك بخيلا وعن مجاهد شرها وعن الضحاك أيضا الهلوع الذى لا يشبع وعن مقاتل ضيق القلب وعن عطاء عجولا وهذه المعانى كلها تنافى الثبات والقوة والاجتماع والامساك والصبر، وقد قال تعالى (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم) وهذا وان كان قد قيل ان المراد به أنها تنصدع فيموتون فانه كما قيل فى مثل ذلك قد انصدع قلبه وقد تفرق قلبى وقد تشتت قلبى وقد تقسم قلبى، ومنه يقال للخوف قد فرق قلبه ويقال بازاء ذلك هو ثابت القلب مجتمع القلب مجزوع القلب ﴿

﴿ فصل ﴾ قال الله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد) فادخل اللام فى الصمد ولم يدخلها فى أحد لأنه ليس فى الموجودات مايسمى أحدا فى الاثبات مفردا غير مضاف بخلاف النفى ومافى معناه كالشرط والاستفهام فانه يقال هل عندك أحد وما جاءنى أحد إلا أكرمته وانما استعمل فى العدد المطلق يقال أحد اثنان ويقال احدى عشرة وفى أول الأيام يقال يوم الأحد فان فيه على أصح القولين ابتدأ الله خلق السموات والأرض وما بينهما

كما دل عليه القرآن والاحاديث الصحيحة فان القرآن اخبر فى غير موضع أنه خلق السموات والارض ومابينهما فى ستة أيام، وقد ثبت فى الحديث الصحيح المتفق على صحته ان آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الاحد لانها ستة ٭

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى قوله خلق التربة يوم السبت فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخارى وغيره قال البخارى : الصحيح أنه موقوف على كعب وقد ذكر تعليله البيهقى أيضا وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخراجه إياه كما أنكروا عليه إخراج أشياء يسيرة وقد بسط هذا فى موضع آخر وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزى فى قوله (خلق الارض فى يومين) قال ابن عباس خلق الارض فى يوم الاحد والاثنين وبه قال عبد الله بن سلام والضحاك ومجاهد وابن جريج والسدى والاكثرون وقال مقاتل فى يوم الثلاثاء والاربعاء قال وقد أخرج مسلم حديث أبى هريرة خلق التربة يوم السبت قال وهذا الحديث مخالف لما تقدم وهو أصح فصحح هذا لظنه صحة الحديث إذ رواه مسلم ولكن هذا له نظائر روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط مثل قول أبى سفيان لما أسلم أريد أن أزوجك أم حبيبة ولا خلاف بين الناس أنه تزوجها قبل اسلام أبى سفيان ولكن هذا قليل جدا ، ومثل ماروى فى بعض طرق حديث صلاة الكسوف انه صلاها بثلاث ركوعات وأربع والصواب انه لم يصلها الا مرة واحدة بركوعين ولهذا لم يخرج البخارى إلا هذا وكذلك الشافعى . وأحمد بن حنبل فى إحدى الروايتين عنه وغيرهما والبخارى سلم من مثل هذا فانه اذا وقع فى بعض الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التى تبين غلط الغالط فانه كان أعرف بالحديث

وعلله وأفقه فى معانيه من مسلم ونحوه ، وذكر ابن الجوزى فى مواضع أخر إن هذا قول ابن إسحق وقال ابن الانبارى وهذا إجماع أهل العلم وذكر قولا ثالثا فى ابتداء الخلق أنه يوم الاثنين وقال قال ابن اسحق وهذا تناقض وذكر أن هذا قول أهل الانجيل والابتداء بيوم الأحد قول أهل التوراة وهذا النقل غلط على أهل الانجيل كما غلط من جعل الأول اجماع أهل العلم من المسلمين، وكأن هؤلاء ظنوا ان كل أمة تجعل اجتماعها فى اليوم السابع من الأيام السبعة التى خلق الله فيها العالم وهذا غلط فان المسلمين انما اجتماعهم فى آخر يوم خلق الله فيه العالم وهو يوم الجمعة كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة ، والمقصود هنا أن لفظ الأحد لم يوصف به شىء من الأعيان الا الله وحده وانما يستعمل فى غير الله فى النفى قال أهل اللغة يقول لا أحد فى الدار ولا تقل فيها أحد ولهذا لم يجىء فى القرآن الا فى غير الموجب كقوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) وكقوله (لستن كأحد من النساء) وقوله (وان أحد من المشركين استجارك فأجره) وفى الاضافة كقوله (فابعثوا أحدكم وجعلنا لأحدهما جنتين) وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة فى حق المخلوقين كما تقدم فلم يقل الله صمد بل قال الله الصمد فبين أنه المستحق لان يكون هو الصمد دون ماسواه فانه المستوجب لغايته على الكمال والمخلوق وان كان صمدا من بعض الوجوه فان حقيقة الصمدية منتفية عنه فانه يقبل التفرق والتجزئة وهو أيضا محتاج الى غيره فان كل ماسوى الله محتاج اليه من كل وجه فليس أحد يصمد اليه كل شىء ولا يصمد هو الى شىء إلا الله وليس فى المخلوقات الا مايقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم وينفصل بعضه من بعض والله سبحانه هو الصمد الذى لا يجوز عليه شىء من ذلك بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم

صمديته بوجه من الوجوه كمالا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه فهو أحد لايماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه كما قال في آخر السورة ولم يكن له كفوا أحد استعملها هنا فى النفى أى ليس شيء من الأشياء كفؤا له فى شيء من الأشياء لأنه أحد ، وقال رجل للنبى ﷺ أنت سيدنا فقال السيد الله ودل قوله الأحد الصمد على أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد فان الصمد هو الذى لاجوف له ولا أحشاء فلا يدخل فيه شيء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال (أفغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) وفى قراءة الأعمش وغيره ولا يطعم بالفتح وقال تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق) ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لايأكلون ولا يشربون فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته فلهذا فسر بعض السلف الصمد بأنه الذى لايأكل ولا يشرب والصمد المصمد الذى لاجوف له فلا يخرج منه عين من الاعيان فلا يلد ولذلك قال من قال من السلف هو الذى لايخرج منه شيء ليس مرادهم انه لايتكلم وان كان يقال فى الكلام أنه خرج منه كما قال فى الحديث «ما تقرب العباد الى الله بشيء أفضل مما خرج منه» يعنى القرآن وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة ان هذا لم يخرج من إلّ فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه ويبلغ الى غيره ليس بمخلوق فى غيره كما يقول الجهمية ليس بمعنى ان شيئا من الأشياء القائمة به يفارقه وينتقل عنه الى غيره فان هذا ممتنع فى صفات المخلوقين ان تفارق الصفة محلها وتنتقل الى غير محلها فكيف بصفات الخالق جل جلاله ، وقد قال تعالى فى كلام المخلوقين (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) وتلك الكلمة

هى قائمة بالمتكلم وسمعت منه ليس خروجها من فيه ان ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته وانتقل الى غيره كخروج كل شيء بحسبه ومن شأن العلم والكلام اذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله ولهذا شبه بالنور الذى يقتبس منه كل أحد الضوء وهو باق على حاله لم ينقص فقول من قال من السلف الصمد هو الذى لم يخرج منه شيء كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه *

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد وذلك أن الولادة والمتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين وما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها وما كان عرضا قائما بغيره فلا بد له من محل يقوم به فالأول نفاه بقوله أحد فان الاحد هو الذى لا كفؤ له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة والتولد انما يكون بين شيئين قال تعالى (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه فان انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم وبانه خالق كل شيء وكل ما سواه مخلوق له ليس فيه شيء مولود له * والثانى نفاه بكونه سبحانه الصمد وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمنى الذى ينفصل من أبيه وأمه فهذا التولد يفتقر الى أصل آخر والى أن يخرج منهما شيء وكل ذلك ممتنع فى حق الله تعالى فانه أحد فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيرا وهو صمد لا يخرج منه شيء فكل واحد من كونه أحد ومن كونه صمدا يمنع أن يكون والدا ويمنع أن يكون مولودا بطريق الاولى والاحرى *

وكما أن التوالد من الحيوان لا يكون الا من أصلين سواء كان الاصلان من جنس الولد وهو الحيوان المتولد أو من غير جنسه وهو المتولد فكذلك فى غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين سواء كانا خشبتين أو كانا حجرا

وحديدا أوغير ذلك قال الله تعالى (فالموريات قدحا) وقال تعالى (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤن نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) وقال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) قال غير واحد من المفسرين هما شجرتان يقال لاحداهما المرخ والاخرى العفار فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضرا وان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتخرج منهما النار باذن الله تعالى وتقول العرب فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار • وقال بعض الناس فى كل شجرة نار الا العناب فاذا أنتم منه توقدون فذلك زنادهم

وقد قال أهل اللغة الجوهرى وغيره الزند الذى يقدح به النار وهو أعلى والزندة السفلى فيها ثقب وهى الانثى فاذا اجتمعا قيل زندان ، وقال أهل الخبرة بهذا أنهم يسحقون الثقب الذى فى الانثى بالاعلى كما يفعل ذكر الحيوان فى أنثاه فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار فتتولد النار من مادة الذكر والانثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة وسحق الانثى بالذكر وقدحها به يقتضى حرارة كل منهما ويتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما ان ايلاج ذكر الحيوان فى انثاه بقدح وحك فرجها بفرجه فتقوى حرارة كل منهما ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى ويتولد منهما الولد ، ويقال علقت النار فى المحل الذى يقدح عليه الذى هو كالرحم للولد وهو الحراق والصوفان ونحو ذلك مما يكون أسرع قبولا للنار من غيره كما علقت المرأة من الرجل وقد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة وقد لا تنقدح نار كما لا ينزل منى والنار ليست من جنس الزنادين بل تولد

النار منهما كتولدحيوان من الماء والطين فان الحيوان نوعان متوالد كالانسان
و بهيمة الانعام وغير ذلك مما يخلق من ابوين ومتولد كالذى يتولد من الفاكهة
والخل وكالقمل الذى يتولد من وسخ جلد الانسان وكالفار والبراغيث
وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب ٭ وقد تنازع الناس فيما يخلق الله من
الحيوان والنبات والمعدن والمطر والنار التى تورى بالزناد وغير ذلك هل
تحدث اعيان هذه الاجسام فتقلب هذا الجنس الى جنس آخر كما يقلب
المنى علقة ثم مضغة أو لا تحدث الا الاعراض وأما الاعيان التى هى الجواهر
فهى باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الاكوان الاربعة الاجتماع
والافتراق والحركة والسكون على قولين فالقائلون بان الاجسام مركبة من
الجواهر الفردة التى لا تقبل التجزى كما يقوله كثير من أهل الكلام وأما
من جواهر لا نهاية لها كما يحكى عن النظام فالقائلون بان الاجسام مركبة
من الجواهر يقولون ان الله لا يحدث شيئا قائما بنفسه وانما يحدث الاعراض
التى هى الاجتماع والافتراق والحركة والسكون وغير ذلك من الاعراض
ثم من قال منهم بان الجواهر محدثة قال ان الله أحدثها ابتداء ثم جميع ما يحدثه
انما هو احداث اعراض فيما لا يحدث الله بعد ذلك جواهر وهذا قول أكثر
المعتزله والجهمية والاشعرية ونحوهم ، ومن أكابر هؤلاء من يظن ان هذا
دين المسلمين ويذكر اجماع المسلمين عليه وهو قول لم يقل به أحد من
سلف الامة ولا جمهور الامة بل جمهور الامة حتى من طوائف أهل الكلام
ينكرون الجوهر الفرد وتركب الاجسام من الجواهر ، وابن كلاب امام
اتباعه هو ممن ينكر الجوهر الفرد وقد ذكر ذلك أبو بكر بن فورك فى مصنفه
الذى صنفه فى مقالات ابن كلاب وما بينه وبين الاشعرى من الخلاف
وهكذا نفى الجوهر الفرد قول الهشامية والضرارية وكثير من الكرامية

والنجارية أيضا ، وهؤلاء القائلون بان الاجسام مركبة من الجواهر الفردة
المشهور عنهم بان الجواهر متماثلة بل ويقولون أو أكثرهم ان الاجسام
متماثلة لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة وانما اختلفت باختلاف الاعراض
وتلك صفات عارضة لها ليست لازمة فلا تنفى التماثل فان حد المثلين أن
يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع
عليه وكذلك الاجسام المؤلفة من الجواهر ولهذا اذا أثبتوا حكما لجسم
قالوا هذا ثابت لجميع الاجسام بناء على التماثل وأكثر العقلاء ينكرون هذا
وحذاقهم قد أبطلوا الحجج التى احتجوا بها على التماثل كما ذكر ذلك الرازى
والآمدى وغيرهما وقد بسط الكلام على هذا فى مواضع والاشعرى فى
كتاب الابانة جعل القول بتماثل الاجسام من أقوال المعتزله التى أنكرها
وهؤلاء يقولون ان الرب يخص أحد الجسمين المتماثلين باعراض دون
الاخر بمجرد المشيئة على أصل الجهمية أو لمعنى آخر مما يقوله القدرية ويقولون
يمتنع انقلاب الاجناس فلا ينقلب الجسم عرضا ولا جنسا من الاعراض الى
جنس آخر فلو قالوا أن الاجسام مخلوقة وان المخلوق ينقلب من جنس
آخر لزم انقلاب الاجناس فهؤلاء يقولون ان التولد الحاصل فى الرحم والثمر
الحاصل فى الشجر والنار الحاصلة فى الزناد هى جواهر كانت فى المادة التى
خلق منها وهى بعينها باقية لكن غيرت صفتها بالاجتماع والافتراق والحركة
والسكون ، ولهذا لما ذكر أبو عبد الله الرازى أدلة اثبات الصانع ذكر أربعة
طرق امكان الذوات وحدوثها وامكان الصفات وحدوثها والطرق الثلاثة
الاول ضعيفة بل باطلة فان الذوات التى ادعوا حدوثها أو امكانها وامكان
صفاتها ذكروها بالفاظ مجملة لا يتميز فيها الخالق عن المخلوق ولم يقيموا
على ما ادعوه دليلا صحيحا ، وأما الطريق الرابع وهو الحدوث لما يعلم حدوثه

فهو طريق صحيح وهو طريق القرآن لكن قصروا فيه غاية التقصير فانهم
على أصلهم لم يشهدوا حدوث شيء من الذوات بل حدوث الصفات وطريقة
القرآن تبين ان كل ماسوى الله مخلوق وانه آية لله وقد بسط الكلام على
مافى القرآن من البراهين والآيات التى لم يصل اليها هؤلاء المتكلمة والمتفلسفة
وان كل ماعندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن فى غير موضع والمقصود
هنا أن هؤلاء لما كان هذا أصلهم فى ابتداء الخلق وهو القول باثبات الجوهر
الفرد كان أصلهم فى المعاد مبنيا عليه فصاروا على قولين منهم من يقول بعدم
الجواهر ثم تعاد ومنهم من قال تتفرق الاجزاء ثم تجتمع فاورد عليهم الانسان
الذى يأكله حيوان وذلك الحيوان أكله انسان آخر فان أعيدت تلك الاجزاء
من هذا لم تعد من هذا وأورد عليهم ان الانسان يتحلل دائما فماذا الذى
يعاد أهو الذى كان وقت الموت؟ فان قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة
ضعيفة وهو خلاف ماجاءت به النصوص وان كان غير ذلك فليس بعض
الابدان باولى من بعض فادعى بعضهم أن فى الانسان أجزاء أصلية لا تتحلل
ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذى أكله الثانى والعقلاء يعلمون ان
بدن الانسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شيء باق فصار ماذكروه فى المعاد
مما قوى شبهة المتفلسفة فى إنكار معاد الابدان وأوجب أن صار طائفة من
النظار الى أن الله يخلق بدنا آخر تعود الروح اليه والمقصود تنعيم الروح
وتعذيبها سواء كان فى هذا البدن أو فى غيره وهذا أيضا مخالف للنصوص
الصريحة باعادة هذا البدن وهذا المذكور فى كتب الرازى فليس فى كتبه
وكتب أمثاله فى مسائل أصول الدين الكبار القول الصحيح الذى يوافق المنقول
والمعقول الذى بعث الله به الرسول وكان عليه سلف الامة وأئمتها بل يذكر
بحوث المتفلسفة الملاحدة وبحوث المتكلمين المبتدعة الذين بنوا على أصول

الجهمية والقدرية فى مسائل الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وكلا الطريقين فاسد إذبنوه على مقدمات فاسدة والقول الذى عليه السلف وجمهور العقلاء من ان الاجسام تنقلب من حال الى حال انما يذكره عن الفلاسفة والاطباء وهذا القول وهو القول فى خلق الله للاجسام التى يشاهد حدوثها انه يقلبها ويحيلها من جسم الى جسم هو الذى عليه السلف والفقهاء قاطبة والجمهور ولهذا يقول الفقهاء فى النجاسة هل تطهر بالاستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا والخنزير وغيره ملحا ونحو ذلك والمنى الذى فى الرحم يقلبه الله علقة ثم مضغة وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التى يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذى نزل عليها وغير ذلك من المواد التى يقلبها ثمرة بمشيئته وقدرته وكذلك الحبة يفلقها وتنقلب المواد التى يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك وهكذا خلقه لما يخلقه سبحانه وتعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظما ولحما وغير ذلك من أجزاء البدن وكذلك المضغة يقلبها عظاما وغير عظام قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) فنفس تلك الاجزاء التى خرجت من الشجر الاخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان فى الشجر الاخضر نار أصلا كما لم يكن فى الشجرة ثمرة أصلا ولا كان فى بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك الماده الى هذا وبما ضمه الى هذا من مواد أخر ، وكذلك الاعادة يعيده بعد أن يبلى كله

الاعجب الذنب كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال «كل ابن آدم يبلى الا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب» وهو اذا أعاد الانسان فى النشاة الثانية لم تكن تلك النشاة مماثلة لهذه فان هذه كائنة فاسدة وتلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة وليس لاهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وانما هو رشح كرشح المسك ، وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه «قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين) فهم يعودون غلفا لا مختونين *

وقال الحسن البصرى ومجاهد كما بدأكم فخلقكم فى الدنيا ولم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء ، وقال قتادة بدأهم من التراب والى التراب يعودون كما قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وقال (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) *

وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس فى النشأة الثانية باحياء الارض بعد موتها فى غير موضع كقوله (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وقال (والارض مددناها وألقينا فيها رواسى) الى قوله (وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) وقال تعالى (ياأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام مانشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى

الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير) وقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق وأنه يحيي العظام وهى رميم وأنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) ويخبر أن الثانى مثل الأول كقوله تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه) وقال تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا) وقال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) وقال تعالى (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى انه على كل شىء قدير) وقال (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) والمراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على اعادتهم كما أخبر بذلك فى قوله (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى) فان القوم ما كانوا يتنازعون فى أن الله يخلق فى هذه الدار ثانيا أمثالهم فان هذا هو الواقع

المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين وهذه هى النشأة الاولى وقد علموها ، وبها احتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال (ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون) وقال (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقال (ياأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم) ولهذا قال (على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون) قال الحسن ابن الفضل البجلى الذى عندى فى هذه الآية وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الاولى بخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت فى بطون الامهات وليست الآخرة كذلك ، ومعلوم أن النشاة الاولى كان الانسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح وتلك النطفة من منى الرجل والمرأة وهو يغذيه بدم الطمث الذى يربيه الله فى ظلمات ثلاث . ظلمة المشيمة . وظلمة الرحم وظلمة البطن ، والنشاة الثانية لا يكونون فى بطن امرأة ولا يغذون بدم ولا يكون أحدهم نطفة رجل وامرأة ثم يصير علقة بل ينشؤن نشأة أخرى وتكون المادة من التراب كما قال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وقال تعالى (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) وقال (والله أنبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخركم إخراجا) وفى الحديث «ان الارض تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون فى القبور كما ينبت النبات» كما قال تعالى كذلك الخروج كذلك النشور وكذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ وجعل مثله

أيضا فباعتبار اتفاق المبدأ أو المعاد فهو هو وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله وهكذا كل ما أعيد فلفظ الاعادة يقتضى المبدأ أو المعاد سواء فى ذلك اعادة الاجسام والاعراض كاعادة الصلاة وغيرها فان النبى صلى الله عليه وسلم مر برجل يصلى خلف الصف وحده فامره أن يعيد الصلاة ويقال للرجل : أعد كلامك وفلان قد أعاد كلام فلان بعينه ويعيد الدرس فالكلام هو الكلام وان كان صوت الثانى غير صوت الأول وحركته ولا يطلق القول عليه انه مثله بل قد قال تعالى (قل لئن اجتمعت الجن والانس على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا وان كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أى مثل هذا قال ويقال فعل هذا عودا على بدء اذا فعله مرة ثانية بعد أولى ومنه البئر البدى والبئر العادى فالبدى التى ابتدأت والعادى التى أعيدت وليست بنسبة الى عاد كما قيل ، ويقال استعدته الشيء فأعاده اذا سالته أن يفعله مرة ثانية ومنه سميت العادة يقال عاده واعتاده وتعوده أى صار عادة له : وعود كلبه الصيد فتعوده وهو من المعاودة والمعاودة الرجوع الى الأمر الأول ويقال الشجاع معاود لانه لا يمل المراس وعاودته الحمى وعاوده بالمسئلة أى سأله مرة بعد مرة وتعاود القوم فى الحرب وغيرها اذا عاد كل فريق الى صاحبه والعواد بالضم ما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه مرة أخرى ، وعواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففى جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الاعادة باعتبار الحقيقة فان الحقيقة الموجودة فى المرة الثانية هى الأولى وان تعدد الشخص ، ولهذا يقال هو مثله ويقال هذا هو هذا وكلاهما صحيح واعنى بالحقيقة الأمر الذى يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فان من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده

وانما يقال حاكاه وشابهه بخلاف ماإذا فعل ثانيا مثل مافعل أولا فانه يقال
أعاد فعله وكذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده ولا يقال لمن أنشأ
مثله قد أعاده ويقال قرىء على هذا وأعاد على هذا وهذا يقرأ أى يدرس
وهذا يعيد ولو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد وكذلك من كسر
خاتما أوغيره من المصوغ يقال أعده كما كان ويقال لمن هدم دارا أعدها
كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فان هذا لا يسمى معيدا والمعاد يقال
فيه هذا هو الأول بعينه ويقال هذا مثل الأول من كل وجه ونحو ذلك
من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه وهو مثله من وجه ، وبهذا تزول
الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال الاعادة لا تكون الامع
اعادة ذلك الزمان ونحو ذلك مما يمنع اعادته فى صريح العقل وانما يعاد
بالاتيان بمثله وان قال بعض المتكلمين انه لامغايرة أصلا بوجه من الوجوه
والاعادة التى أخبر الله بها هى الاعادة المعقولة فى هذا الخطاب وهى الاعاة
التى فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله ﷺ وهى التى يدل عليها
لفظ الاعادة والمعاد هو الأول بعينه وان كان بين لوازم الاعادة ولوازم
البدأة فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول لان الجسد الثانى
مباين للاول من كل وجه كما زعم بعضهم ولان النشأة الثانية كالأولى من
كل وجه كما ظن بعضهم وكما انه سبحانه خلق الانسان ولم يكن شيئا كذلك
يعيده بعد أن لم يكن شيئا ، وعلى هذا فالانسان الذى صار ترابا ونبت من
ذلك التراب نبات أكله انسان آخر وهلم جرا والانسان الذى أكله انسان
أوحيوان وأكل ذلك الحيوان انسانا آخر ففى هذا كله قد عدم هذا الانسان
وهذا الانسان فصار كل منهما ترابا كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا
ويعاد هذا من التراب انما يبقى عجب الذنب منه خلق ومنه يركب *

وأما سائره فعدم فيعاد من المادة التى استحال اليها فاذا استحال فى القبر الواحد
ألف ميت وصاروا كلهم ترابا فانهم يعادون ويقومون من ذلك القبر وينشئهم
الله تعالى بعد أن كانوا عدما محضا كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضا واذا
صار ألف انسان ترابا فى قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن
يخلقهم كما خلقهم فى النشأة الأولى التى خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من
مضغة وجعل نشاتهم بما يستحيل الى أبدانهم من الطعام والشراب كما يستحيل
الى بدن احدهم ما يأكله من نبات وحيوان وكذلك لو أكل انسانا أو أكل
حيوانا قد أكل إنسانا فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الاستحالة بل
يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة الى علقة الى مضغة ومن غير أن
يغذوها بدم الطمث ومن غير أن يغذوها بلبن الأم وبسائر ما يأكله من
الطعام والشراب فمن ظن أن الاعادة تحتاج الى اعادة الاغذية التى استحالت
الى أبدانهم فقد غلط وحينئذ فاذا أكل انسان انسانا فانما صار غذاءله كسائر
الاغذية وهو لا يحتاج الى اعادة الاغذية ومعلوم ان الغذاء ينزل الى المعدة
طعاما وشرابا ثم يصير كاوسا كالثردة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما
فيقسمه الله تعالى فى البدن كله ويأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل
الدم الى شبيه ذلك الجزء العظم عظما واللحم لحما والعرق عرقا وهذا فى
الرزق كاستحالتهم فى مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة وكما أنه سبحانه
لا يحتاج فى الاعادة الى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك
أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها فاكهة ولحما ثم يجعلها كاوسا وكيموسا ثم دما ثم
عظما ولحما وعروقا بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست
مثل هذه النشاة كما قال (وننشئكم فيما لا تعلمون) ولا يحتاج مع ذلك الى شىء
من هذه الاستحالات التى كانت فى النشاة الأولى وبهذا يظهر الجواب عن

قوله البدن دائما فى التحلل فان تحلل البدن ليس باعجب من انقلاب النطفة علقة والعلقة مضغة وحقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى *

وأما البدن المتحلل فالاجزاء الثانية تشابه الأولى وتماثلها واذا كان فى الاعادة لايحتاج الى انقلابه من حقيقة الى حقيقة فكيف بانقلابه بسبب التحلل ومعلوم أن من رأى شخصا وهو شاب ثم رآه وهو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الاستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هى الأولى مع ان التحلل والاستحالة ثابت فى سائر الحيوان والنبات كما هو فى بدن الانسان ولا يحتاج عاقل فى اعتقاده أن هذه الشجرة هى الأولى وأن هذه الفرس هى التى كانت عنده من سنين ولا أن هذا الانسان هو الذى رآه من عشرين سنة الى أن يقدر بقاء أجزاء اصلية لم تتحلل ولا يخطر هذا ببال أحد ولا يقتصر العقلاء فى قولهم هذا هو ذاك على تلك الاجزاء التى لا تعرف ولا تتميز عن غيرها بل انما يشيرون الى جملة الشجرة والفرس والانسان مع أنه قد يكون كان صغيرا فكبر ولا يقال انما كان هو ذاك باعتبار ان النفس الناطقة واحدة كما زعمه من ادعى ان البدن الثانى ليس هو الاول ولكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ففى أى بدن كانت حصل المقصود فان هذا أيضا باطل مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف مخالف للمعقول من الاعادة فانا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس هو ذاك وهذه الشجرة هى تلك التى كانت من سنين مع علم العقلاء ان النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه وتقوم بذاتها وكذلك يقولون مثل هذا فى الحيوان وفى الانسان مع نه لم يخطر بقلوبهم ان المشار اليه بهذا وذاك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذاك مع

وجود الاستحالة وعلم بذلك أن ماذكر من الاستحالة لاينافى أن يكون البدن الذى يعاد فى النشأة الثانية هو هذا البدن ولهذا يشهد البدن المعاد بما عمل فى الدنيا كما قال تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال تعالى (حتى اذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) ومعلوم ان الانسان لوقال أوفعل فعلا أو رأى غيره يفعل أوسمعه يقول ثم بعد ثلاثين سنة شهد على نفسه بما قال أوفعل وهو الاقرار الذى يؤاخذ بموجبه أوشهد على غيره من الاموال وأقر به من الحقوق لكانت الشهادة على عين ذلك المشهود عليه مقبولة مع استحالة بدنه فى هذه المدة الطويلة ولايقول عاقل من العقلاء ان هذه الشهادة على مثله أو على غيره ولو قدر أن المعين حيوان أونبات وشهد ان هذا الحيوان قبضه هذا من هذا وان هذا الشجر سلمه هذا الى هذا كان كلاما معقولا مع الاستحالة واذا كانت الاستحالة غير مؤثرة فقول القائل يعيده على صفة ماكان وقت موته أوسمنه أوهزاله وغير ذلك جهل منه فان صفة تلك النشأة الثانية ليست مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال ان الصفات هى المغيرة اذ ليس هناك استحالة ولااستفراغ ولاامتلاء ولاسمن ولاهزال لاسيما أهل الجنة اذا دخلوها فانهم يدخلونها على صورة أبيهم آدم طول أحدهم ستون ذراعا كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما وروى ان عرضه سبعة أذرع وهم لايبولون ولايتغوطون ولا يبصقون ولايتمخطون وليست تلك النشأة من اخلاط متضادة حتى يستلزم مفارقة بعضها بعضا كما هى هذه النشأة ولالطعامهم مستحيلا ولالشرابهم مستحيلا من التراب والماء والهواء كما هى أطعماتهم فى هذه النشأة ولهذا أبقى الله طعام الذى مر على قرية

وشرابه مائة عام لم يتغير ودلنا سبحانه بهذا على قدرته فاذا كان فى دار الكون والفساد يبقى الطعام الذى هو رطب وعنب أو نحو ذلك والشراب الذى هو ماء أو مافيه ماء مائة عام لم يتغير فقدرته سبحانه وتعالى على أن يجعل الطعام والشراب فى النشأة الاخرى لايتغير بطريق الاولى والأحرى ، وهذه الامور لبسطها موضع آخر *

فصل — والمقصود هنا ان التولد لابد له من أصلين وان ظن ظان ان نفس الهواء الذى بين الزنادين يستحيل نارا بسخونته من غير مادة تخرج منهما تنقلب نارا فقد غلط وذلك لانه لاتخرج ناران لم يخرج منهما مادة بالحك ولاتخرج النار بمجرد الحك ، وأيضا فانهم يقدحون على شىء أسفل من الزنادين كالصوفان والحراق فتنزل النار عليه وانما ينزل الثقيل فلولا أن هناك جزأ ثقيلا من الزناد الحديد والحجر لما نزلت النار ولو كان الهواء وحده انقلب نارا لم ينزل لان الهواء طبعه الصعود لاالهبوط لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة نارا قد ينقلب الهواء القريب منها نارا اما دخانا واما لهيبا ، والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين كما خلق آدم من التراب والماء والا فالتراب المحض الذى لم يختلط به ماء لايخلق منه شىء لاحيوان ولانبات والنبات جميعه انما يتولد من أصلين أيضا ، والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل كما قال تعالى : (ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقال (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) وقال (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت انى اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) وقد ذكر المفسرون ان جبريل نفخ فى جيب درعها والجيب هو الطوق الذى فى العنق ليس هو ما يسميه

بعض العامة جيبا وهو مايكون فى مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها ، وموسى لما أمره الله أن يدخل يده فى جيبه هو ذلك الجيب المعروف فى اللغة ، وذكر أبو الفرج وغيره قولين هل كانت النفخة فى جيب الدرع أو فى الفرج ؟ فان من قال بالأول قال فى فرج درعها وان من قال هو مخرج الولد قال انها كناية عن غير مذكور لأنه انما نفخ فى درعها لافى فرجها وهذا ليس بشىء بل هو عدول عن صريح القرآن وهذا النقل ان كان ثابتا لم يناقض القرآن وان لم يكن ثابتا لم يلتفت اليه فان من نقل ان جبريل نفخ فى جيب الدرع فمراده انه صلى الله عليه وسلم لم ينكشف بدنها وكذلك جبريل كان اذا أتى النبى صلى الله عليه وسلم وعائشة متجردة لم ينظر اليها متجردة فنفخ فى جيب الدرع فوصلت النفخة الى فرجها ، والمقصود انما هو النفخ فى الفرج كما أخبر الله به فى آيتين والا فالنفخ فى الثوب فقط من غير وصول النفخ الى الفرج مخالف للقرآن مع انه لا تأثير له فى حصول الولد ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف *

والمقصود هنا ان المسيح خلق من أصلين من نفخ جبريل ومن أمه مريم وهذا النفخ ليس هو النفخ الذى يكون بعد مضى أربعة أشهر والجنين مضغة فان ذلك نفخ فى بدن قد خلق وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد ولا كانت مريم حملت وانما حملت به بعد النفخ بدليل قوله : (قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) فلما نفخ فيها جبريل حملت به ولهذا قيل فى المسيح روح منه باعتبار هذا النفخ وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذى هو روحه وهو جبريل هو الروح الذى خاطبها وقال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا فقوله ونفخنا فيها أو فيه من روحنا أى من هذا الروح الذى هو جبريل وعيسى روح من هذا الروح فهو روح من الله بهذا

الاعتبار ومن لابتداء الغاية ، والمقصود هنا أنه قد يكون الشيء من أصلين بانقلاب المادة التى بينهما اذا التقيا وبينهما مادة فتنقلب وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلابد من نقص أجزائها وهذا مثل تولد النار بين الزنادين اذا قدح الحجر بالحديد أو الشجر بالشجر كالمرخ والعفار فانه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر يستحيل بعض أجزائهما ويسخن الهواء الذى بينهما فيصير نارا والزندان كلما قدح أحدهما بالآخر نقصت احداهما بقوة الحك فهذه النار استحالت عن الهواء وتلك الاجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر وكذلك النور الذى يحصل بسبب انعكاس الشعاع على مايقابل المضىء كالشمس والنار ، فان لفظ النور والضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه كالنار التى فى رأس المصباح وهذه لاتحصل الا بمادة تنقلب نارا كالحطب والدهن ويستحيل الهواء أيضا نارا ولاينقلب الهواء نارا الا بنقص المادة التى اشتعلت أو نقص الزندين ، وتارة يراد بلفظ النور والضوء الشعاع الذى يكون على الارض والحيطان من الشمس أو من النار فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه لابد له من محل يقوم به يكون قابلا له فلابد فى الشعاع من جسم مضىء ولابد من شىء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع وكذلك النار الحاصلة فى ذبالة المصباح فاذا وضعت فى النار أو وضع فيها حطب فان النار تحل أولا المادة التى هى الدهن أو الحطب فيسخن الهواء المحيط بها فينقلب نارا وانما ينقلب بعد نقص المادة وكذلك الريح التى تحرك النار مثل ماتهب الريح فيشتعل فى الحطب ومثل ماينفخ فى الكير وغيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما فى محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه نارا ومافى حركة الريح القوية من تحريك النار الى المحل القابل له ، وقد ينقلب أيضا الهواء القريب من

النار فان اللهيب هو الهواء انقلب نارا مثل ما فى زبالة المصباح ، ولهذا اذا طفئت صار دخانا وهو هواء مختلط بنار كالبخار وهو هواء مختلط بماء والغبار هواء مختلط بتراب ، وقد يسمى البخار دخانا ومنه قوله تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان) قال المفسرون : بخار الماء كما جاءت الآثار ان الله خلق السموات من بخار الماء وهو الدخان فالدخان الهواء المختلط بشىء حار ثم قد لا يكون فيه ماء وهو الدخان الصرف وقد يكون فيه ماء فهو دخان وهو بخار كبخار القدر وقد يسمى الدخان بخارا فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر وان كان لا رطوبة هنا بل دخان الطيب سمى بخارا قال الجوهرى بخار الماء ما يرتفع منه كالدخان والبخور بالفتح ما يتبخر به لكن انما يصير الهواء نارا بعد أن تذهب المادة التى انقلبت نارا كالحطب والدهن فلم تتولد النار الا من مادة كما لم يتولد الحيوان الا من مادة *

فصل والمقصود أن كل ما يستعمل فيه لفظ التولد من الأعيان القائمة فلا بد أن يكون من أصلين ومن انفصال جزء من الأصل واذا قيل فى الشبع والرى انه متولد أو فى زهوق الروح ونحو ذلك من الأعراض أنه متولد فلا بد فى جميع ما يستعمل فيه هذا اللفظ من أصلين لكن العرض يحتاج الى محل لا يحتاج الى مادة تنقلب عرضا بخلاف الأجسام فانها انما تخلق من مواد تنقلب أجساما كما تنقلب الى نوع آخر كانقلاب الماء علقة ثم مضغة وغير ذلك من خلق الحيوان والنبات ، وأما ما كان من أصل واحد كخلق حواء من ضلع القصرى وهو وان كان مخلوقا من مادة أخذت من آدم فلا يسمى هذا تولدا ولهذا لا يقال ان آدم ولد حواء ولا يقال انه أبو حواء بل خلق الله حواء من آدم كما خلق آدم من الطين *

وأما المسيح فيقال انه ولدته مريم ويقال المسيح ابن مريم فكان المسيح جزءا من مريم وخلق بعد نفخ الروح فى فرج مريم كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وفى الأخرى (فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) *

وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم كما خلق آدم من المادة الارضية وهى الماء والتراب والريح الذى أيبسه حتى صار صلصا لا فلهذا لا يقال آدم ولد حواء ولا آدم ولده التراب ، ويقال فى المسيح ولدته مريم فانه كان من أصلين من مريم ومن النفخ الذى نفخ فيها جبريل قال الله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) الى آخر القصة فهى انما حملت به بعد النفخ لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الآدميين ففرق بين النفخ للحمل وبين النفخ لروح الحياة ، فتبين ان ما يقال انه متولد من غيره من الاعيان القائمة بنفسها فلا يكون الا من مادة تخرج من ذلك الوالد ولا يكون الا من أصلين والرب تعالى صمد فيمتنع أن يخرج منه شىء وهو سبحانه لم يكن له صاحبة فيمتنع أن يكون له ولد * وأما ما يستعمل من تولد الاعراض كما يقال تولد الشعاع وتولد العلم عن الفكر وتولد الشبع عن الاكل وتولدت الحرارة عن الحركة ونحو ذلك فهذا ليس من تولد الاعيان مع ان هذا لا بد له من محل ولا بد له من أصلين ولهذا كان قول النصارى ان المسيح ابن الله مستلزما الآن يقولوا

ان مريم صاحبة الله فيجعلون له زوجة وصاحبة كما جعلوا له ولدا بأى معنى فسروا كونه ابنه فانه يفسر الزوجة بذلك المعنى والادلة بتنزيهه عن الصاحبة توجب تنزيهه عن الولد فاذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعداً لازما لهم وقد بسط هذا فى الرد على النصارى *

﴿ فصل فى قول اليهود والنصارى فى الرب جل وعز ﴾

وهذا مما يبين ان ما نزه الله نفسه ونفاه عنه بقوله (لم يلد ولم يولد) وبقوله (ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون) وقوله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) يعم جميع الانواع التى تذكر فى هذا الباب عن بعض الامم كما ان ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضا جميع أنواع الاتخاذات لا اصطفاء كما قال تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير) قال السدى : قالوا ان الله أوحى الى اسرائيل ان ولدك بكرى من الولد فادخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى مناد أخرجوا كل مختون من بنى اسرائيل وقد قال تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله) وقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) وقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون

لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم انى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) وقال (وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياى فارهبون وله مافى السموات والارض وله الدين واصبا) الى قوله (ويجعلون لما لايعلمون نصيبا) الى قوله (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون) وقال (ولاتجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أناثا انكم لتقولون قولا عظيما ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم الا نفورا قل لوكان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) وقال (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم) وقال (أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) الى قوله (ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى)وقال تعالى(وجعلوا له من عباده جزءا) ٭

قال بعض المفسرين جزءا أى نصيبا وبعضا ، وقال بعضهم جعلوا لله نصيبا من الولد ، وعن قتادة ومقاتل عدلا وكلا القولين صحيح فانهم يجعلون له ولدا

والولد يشبه أباه ولهذا قال (واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا) أى البنات كما قال فى الآية الأخرى (واذا بشر أحدهم بالانثى) فقد جعلوها للرحمن مثلا وجعلوا له من عباده جزءا فان الولد جزء من الوالد كما تقدم قال صلى الله عليه وسلم «انما فاطمة بضعة منى» وقوله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال الكلبى نزلت فى الزنادقة قالوا ان الله وابليس شريكان فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام وابليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ، وأما قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) فقيل هو قولهم الملائكة بنات الله وسمى الملائكة جنا لاجتنانهم عن الابصار وهو قول مجاهد وقتادة ، وقيل قالوا لحى من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم ابليس وهم بنات الله ، وقال الكلبى قالوا لعنهم الله ، بل بذور تخرج منها الملائكة وقوله (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال بعض المفسرين كالثعلبى وهم كفار العرب قالوا الملائكة والاصنام بنات الله واليهود قالوا عزير ابن الله

﴿فصل فى عقائد العرب فى الرب وتحقيق عقائد النصارى فيه جل وعز﴾

والذين كانوا يقولون من العرب ان الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من انه صاهر الجن فولدت له الملائكة فقد نفاه عنه بامتناع الصاحبة وبامتناع أن يكون منه جزء فانه صمد ، وقوله (ولم تكن له صاحبة) وهذا كما تقدم من أن الولادة لاتكون الامن أصلين سواء فى ذلك تولد الأعيان التى تسمى الجواهر وتولد الاعراض والصفات بل ولايكون تولد الاعيان الا بانفصال جزء من الوالد فاذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد وقد علموا كلهم أن لاصاحبة له لامن الملائكة ولا من الجن ولا من الانس فلم يقل أحد منهم ان له صاحبة فلهذا احتج بذلك عليهم ، وما حكى عن بعض كفار العرب انه صاهر الجن فهذا فيه نظر وذلك ان كان قد قيل فهو مما يعلم

انتفاؤه من وجوه كثيرة وكذلك ماقالته النصارى من أن المسيح ابن الله وماقاله طائفة من اليهود ان العزير ابن الله فانه قد نفاه سبحانه بهذا وبهذا ٭

فان قيل : اما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم وأما الموجود فى كلام علمائهم وكتبهم فانهم يقولون ان أقنوم الكلمة ويسمونها الابن تدرع المسيح أى اتخذه درعا كما يتدرع الانسان قميصه فاللاهوت تدرع الناسوت ويقولون باسم الآب والابن وروح القدس اله واحد ، قيل قصدهم ان الرب موجود حى عليم فالموجود هو الآب والعلم هو الابن والحياة هو روح القدس هذا قول كثير منهم ، ومنهم من يقول بل موجود عالم قادر ويقول العلم هو الكلمة وهو المتدرع والقدرة هى روح القدس فهم مشتركون فى ان المتدرع هو أقنوم الكلمة وهى الابن ٭

ثم اختلفوا فى التدرع واختلفوا هل هما جوهر أو جوهران ؟ وهل هما نسبة أو نسبتان ولهم فى الحلول والاتحاد كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه فان مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينهم ما يتعذر ضبطه فان قولهم ليس مأخوذا عن كتاب منزل ولا نبى مرسل ولا هو موافق لعقول العقلاء . فقالت اليعقوبية صار جوهرا واحدا وطبيعة واحدة وأقنوما واحدا كالماء فى اللبن ، وقالت النسطورية بل هما جوهران وطبيعتان ومشيئتان لكن حل اللاهوت فى الناسوت حلول الماء فى الظرف ، وقالت الملكانية بل هما جوهر واحد له مشيئتان وطبيعتان أو فعلان كالنار فى الحديد وقد ذهب بعض الناس الى ان قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) هم اليعقوبية ، وفى قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله) هم الملكانية ، وقوله (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) هم النسطورية وليس بشىء بل الفرق الثلاث تقول المقالات التى حكاها الله عز وجل عن النصارى

فكلهم يقولون انه الله ويقولون انه ابن الله وكذلك فى أمانتهم التى هم متفقون عليها يقولون اله حق من اله حق ، وأما قوله ثالث ثلاثة فانه قال تعالى (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) *

قال أبو الفرج ابن الجوزى فى قوله (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) قال المفسرون معنى الآية ان النصارى قالوا الالهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم كل واحد منهم اله وذكر عن الزجاج الغلو مجاوزة القدر فى الظلم وغلو النصارى فى عيسى قول بعضهم هو الله وقول بعضهم هو ابن الله وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بماذكروه من ان الكلمة هو الابن والفرق الثلاثة متفقة على ذلك وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه ، أحدها انه ليس فى شىء من كلام الانبياء تسمية صفة الله ابناً لاكلامه ولاغيره فتسميتهم صفة الله ابناً تحريف الكلام الانبياء عن مواضعه ، ومانقلوه عن المسيح من قولهم عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس لم يرد بالابن صفة الله التى هى كلمته ولابروح القدس حياته فانه لايوجد فى كلام الانبياء ارادة هذا المعنى كما قد بسط هذا فى الرد على النصارى ، الوجه الثانى أن هذه الكلمة التى هى الابن أهى صفة الله قائمة به أم هى جوهر قائم بنفسه ؟ فان كانت صفته بطل مذهبهم من وجوه *

أحدها أن الصفة لاتكون الها يرزق ويخلق ويحيى ويميت والمسيح عندهم اله يخلق ويرزق ويحى ويميت فاذا كان الذى تدرعه ليس بآله فهو أولى أن لايكون إلها ، الثانى أن الصفة لاتقوم بغير الموصوف فلا تفارقه وان قالوا نزل عليه كلام الله وقالوا انه الكلمة أو غير ذلك فهذا قدر مشترك

بينه وبين سائر الانبياء ، الثالث أن الصفة لاتتحد وتتدرع شيئا الامع الموصوف فيكون الاب نفسه هو المسيح والنصارى متفقون على انه ليس هو الاب فان قولهم متناقض ينقض بعضه بعضا يجعلونه إلها يخلق ويرزق ولا يجعلونه الأب الذى هو الاله ويقولون اله واحد وقد شبهه بعض متكلميهم كيحى بن عدى بالرجل الموصوف بأنه طبيب وحاسب وكاتب وله بكل صفة حكم فيقال هذا حق لكن قولهم ليس نظير هذا فاذا قلتم ان الرب موجود حى عالم وله بكل صفة حكم فمعلوم أن المتحد ان كان هو الذات المتصفة فالصفات كلها تابعة لها فانه اذا تدرع زيد الطبيب الحاسب الكاتب درعا كانت الصفات كلها قائمة به وان كان المتدرع صفة دون صفة عاد المحذور ، وان قالوا المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين وهذا ممتنع فان الصفات القائمة بموصوف واحد وهى لازمة له لاتفترق وصفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقى بخلاف صفات الرب تعالى ❋ الرابع ان المسيح نفسه ليس هو كلمات الله ولا شيئا من صفاته بل هو مخلوق بكلمة الله وسمى كلمة لانه خلق بكن من غير الحبل المعتاد كما قال تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال تعالى (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالتوراة والانجيل وسائر كلام الله لم يكن كلام الله ولا شىء من صفاته خالقا ولا ربا ولا إلها فالنصارى اذا قالوا ان المسيح هو الخالق كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقة ومن جهة جعله هو نفس الصفة وإنما هو مخلوق بالكلمة ثم قولهم بالتثليث وان الصفات ثلاث باطل ، وقولهم أيضا بالحلول والاتحاد باطل فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه وغيرها ❋

فلو قالوا ان الرب له صفات قائمة به ولم يذكروا اتحادا ولا حلولا كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات وان قالوا ان الصفات اعيان قائمة بنفسها فهذا مكابرة فهم يجمعون بين المتناقضين وأيضا فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل فان صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير والاقانيم عندهم التي جعلوها الصفات ليست الا ثلاثة ولهذا تارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم واضطرابهم كثير فان قولهم في نفسه باطل ولا يضبطه عقل عاقل ولهذا يقال لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولا ، وأيضا فكلمات الله كثيرة لانهاية لها كما قال سبحانه وتعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) وهذا قول جماهير الناس من المسلمين وغير المسلمين وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلما بمشيئته ، وقول من قال انه لم يزل قادرا على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاما قائما بذاته حادثا وقول من قال كلامه مخلوق في غيره وأما من قال كلامه معناه شيء واحد قديم العين فهؤلاء منهم من يقول انه أمور لانهاية لها مع ذلك ومنهم من يقول بل هو معنى واحد ولكن العبارات عنه متعددة وهؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائما بغير الله وانما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة ويمتنع أن يكون المسيح شيئا من تلك العبارات فلا يمتنع أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء وعلى قول الجمهور أشد امتناعا لأن كلمات الله كثيرة والمسيح ليس هو جميعها بل ولا مخلوقا بجميعها وانما خلق بكلمة منها وليس هو عين تلك الكلمة فان الكلمة صفة من الصفات والمسيح عين قائم بنفسه ، ثم يقال لهم : تسميتكم العلم والكلمة ولدا وابنا تسمية باطلة باتفاق العلماء

والعقلاء ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء قالوا لأن الذات يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام فلهذا سميت الكلمة ابنا ، قيل هذا باطل من وجوه ، أحدها ان صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالنا وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته فيمتنع أن يوصف بالتولد الا أن يدعى المدعى أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه وهى ابن له ومعلوم أن هذا من أبطل الأمور فى العقول واللغات فان حياة الانسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له لايقال انها متولدة عنه وانها ابن له وأيضا فيلزم أن تكون حياة الرب أيضا ابنه ومتولدة وكذلك قدرته والافما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات ، وثانيها أن هذا ان كان من باب تولد الجواهر والأعيان القائمة بنفسها فلا بدله من أصلين ولابد أن يخرج من الأصل جزء وأما علمنا وقولنا فليس عينا قائما بنفسه وان كان صفة قائمة بموصوف وعرضا قائما فى محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضا لايتولد الاعن أصلين ولابدله من محل يتولد فيه والواحد منا لايحدث له العلم والكلام الا بمقدمات تتقدم على ذلك وتكون أصلا للفرع ويحصل العلم والكلام فى محل لم يكن حاصلا فيه قبل ذلك *

﴿فان قلتم﴾ ان علم الرب كذلك لزم أن يصير عالما بالاشياء بعد أن لم يكن عالما بها وان تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلما وهذا مع انه كفر عند جماهير الامم من المسلمين والنصارى وغيرهم فهو باطل فى صريح العقل فان الذات التى لاتكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها والله تعالى يمتنع عليه أن يكون متعلما من خلقه وكذلك الذات التى

تكون عاجزة عن الكلام يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا احد يجعلها قادرة
والواحد منها لا يولد جميع علومه بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها
فاذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى فلا يقول أحد من بنى آدم : ان الانسان
يولد علومه كلها ولا يقول أحد انه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة
بل الذى يقدر على النطق هو الذى أنطق كل شىء ، فان قالوا ان الرب يولد
بعض علمه وكلامه دون بعض بطل تسمية العلم الذى هو الكلمة مطلقا
الابن وصار لفظ الابن انما يسمى به بعض علمه أو بعض كلامه وهم يدعون
ان المسيح هو الكلمة وهو أقنوم العلم مطلقا وذلك ليس متولدا عنه كله ولا
يسمى كله ابنا باتفاق العقلاء ، وثالثها أن يقال تسمية علم العالم وكلامه ولداً
له لا يعرف فى شىء من اللغات المشهورة وهو باطل بالعقل فان علمه وكلامه
كقدرته وعلمه فان جاز هذا جاز تسمية صفات الانسان كلها الحادثة متولدات
عنه له وتسميتها أبناءه ، ومن قال من أهل الكلام القدرية ان العلم الحاصل
بالنظر متولد عنه فهو كقوله ان الشبع والرى متولد عن الاكل والشرب
ثم لا يقول ان العلم ابنه وولده كما لا يقول ان الشبع والرى ابنه ولا ولده
لان هذا من باب تولد الاعراض والمعانى القائمة بالانسان وتلك لا يقال
انها أولاده وأبناؤه ومن استعار فقال بنيات فكره فهو كما يقال بنيات الطريق
ويقال ابن السبيل ويقال لطير الماء ابن ماء ، وهذه تسمية مقيدة قد عرف
أنها ليس المراد بها ما هو المعقول من الاب والابن والوالد والولد ، وأيضا
فكلام الانبياء ليس فى شىء منه تسمية شىء من صفات الله ابنا فمن حمل
شيئا من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم وهذا مما يقر به علماء
النصارى وما وجد عندهم من لفظ الابن فى حق المسيح واسرائيل وغيرهما
هو اسم للمخلوق لا لشىء من صفات الخالق والمراد به انه مكرم معظم ٭

ورابعها أن يقال فاذا قدران الامر كذلك فالذى حصل للمسيح ان كان هو ماعلمه الله اياه من علمه وكلامه فهذا موجود لسائر النبيين فلا معنى لتخصيصه بكونه ابن الله وان كان هو ان العلم والكلام اله اتحد به فيكون العلم والكلام جوهرا قائما بنفسه فان كان هو الاب فيكون المسيح هو الاب وان كان العلم والكلام جوهرا آخر فيكون الهان قائمان بأنفسهما فتبين فساد ماقالوه بكل وجه * وخامسها أن يقال من المعلوم عند الخاصة والعامة ان المعنى الذى خص به المسيح انما هو ان خلق من غير أب فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه وبهذا ناظر نصارى نجران النبى ﷺ وقالوا ان لم يكن هو ابن الله فقل لنا فمن أبوه ؟ فعلم ان النصارى انما ادعوا فيه البنوة الحقيقية وان ماذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب ليزيلوا به الشناعة التى لايبلغها عاقل والافليس فى جعله ابن الله وجه يختص به معقول فعلم ان النصارى جعلوه ابن الله وان الله أحبل مريم والله هو أبوه وذلك لايكون الا بانزال جزء منه فيها وهو سبحانه الصمد ويلزمهم أن تكون مريم صاحبة وزوجة له ولهذا يتولونها كما أخبر الله عنهم وأى معنى ذكروه فى بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى وبين غيره ولاصار فيه معنى البنوة بل قالوا كما قال بعض مشركى العرب انه صاهر الجن فولدت له الملائكة واذا قالوا اتخذه ابنا على سبيل الاصطفاء فهذا هو المعنى الفعلى وسيأتى ان شاء الله تعالى ابطاله ، وقوله تعالى (وروح منه) ليس فيه ان بعض الله صار فى عيسى بل من لابتداء الغاية كما قال (وسخر لكم مافى السموات ومافى الارض جميعا منه) وقال (ومابكم من نعمة فمن الله) وماأضيف الى الله أوقيل هو منه فعلى وجهين ان كان عينا قائمة بنفسها فهو مملوك له ومن لابتداء الغاية كما قال تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) وقال

فى المسيح (وروح منه)وما كان صفة لايقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له كما يقال كلام الله وعلم الله وكما قال (نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمرا والمقدور قدرة والمرحوم به رحمة والمخلوق بالكلمة كلمة، فاذا قيل فى المسيح انه كلمة الله فالمراد به انه خلق بكلمته ثم بقوله كن ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر والافعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به وكذلك اذا قيل عن المخلوق انه أمر الله فالمراد ان الله كونه بأمره كقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)وقوله (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل)فالرب تعالى أحد صمد لايجوز أن يتبعض ويتجزأ فيصير بعضه فى غيره سواء سمى ذلك روحا أوغيره فبطل مايتوهمه النصارى من كونه ابنا له وتبين انه عبد من عباد الله وقدقيل منشأ ضلال القوم انه كان فى لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالاب وبالابن عن العبد المربى الذى يربه الله ويربيه فقال المسيح عمدوا الناس باسم الاب والابن وروح القدس فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبده ورسوله المسيح ويؤمنوا بروح القدس جبريل فكانت هذه الاسماء لله ولرسوله الملكى ورسوله البشرى قال الله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس)وقدأخبر تعالى فى غير آية انه أيد المسيح بروح القدس وهو جبريل عندجمهور المفسرين كقوله تعالى(ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) فعند جمهور المفسرين ان روح القدس هو جبريل هذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى وغيرهم ودليل هذا قوله (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت

مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) وروى الضحاك عن ابن عباس انه الاسم الذى كان يحيى به الموتى ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه الانجيل وقال تعالى (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) وقال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) وقال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فما ينزله الله فى قلوب أنبيائه ما تحيا به قلوبهم من الايمان الخالص يسميه روحا وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين والمسيح من أولى العزم فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والانبياء ، وقال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) وقد ذكر الزجاج فى تأييده ثلاثة أوجه ، أحدها انه أيده به لاظهار أمره ودينه ، الثانى لدفع بنى اسرائيل عنه اذ أرادوا قتله ، الثالث انه أيد فى جميع احواله ، ومما يبين ذلك ان لفظ الابن فى لغتهم ليس مختصا بالمسيح بل عندهم ان الله تعالى قال فى التوراة لاسرائيل : أنت ابنى بكرى والمسيح كان يقول أبى وأبيكم فيجعله أبا للجميع ويسمى غيره ابناله كما يسمى هو ابناله فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك ولكن النصارى يقولون هو ابنه بالطبع وغيره ابنه بالوضع فيفرقون فرقا لا دليل عليه ثم قولهم هو ابن بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلا وسمعا ما يبين بطلانه *

﴿فصل﴾ وأما ما يقوله الفلاسفة القائلون بان العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته وانه صدر عنه عقل ثم عقل ثم عقل الى تمام عشرة عقول وتسعة أنفس وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر والنفس بمنزلة الانثى فهؤلاء

قولهم أفسد من قول مشركى العرب وأهل الكتاب عقلا وشرعا ، ودلالة القرآن على فساده أبلغ وذلك من وجوه ، أحدها ان هؤلاء يقولون بقدم الافلاك وقدم هذه الروحانيات التى يثبتونها ويسمونها المجردات والمفارقات والجواهر العقلية وان ذلك لم يزل قديما أزليا وما كان قديما أزليا امتنع أن يكون مفعولا بوجه من الوجوه ولا يكون مفعولا الا ما كان حادثا وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء وعليها الأولون والآخرون من الفلاسفة وسائر الامم ولهذا كان جماهير الامم يقولون كل ممكن أن يوجد وأن لا يوجد فلا يكون الا حادثا وانما ادعى وجود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين كابن سينا ومن وافقه زعموا ان الفلك قديم معلول لعلة قديمة ، وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك وهم جمهورهم ومن كان قبل ارسطو فهؤلاء موافقون لاهل الملل ومن قال بقدم الفلك كارسطو وشيعته فانما يثبتون له علة غائية يشتبه الفلك بها لا يثبتون له علة فاعلة وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك كل ذلك قديم واجب بنفسه وان كان له علة غائية ، وهؤلاء أكفر من هولاء المتأخرين لكن الغرض ان يعرفوا ان قول هؤلاء ليس قول أولئك ، الثانى ان هؤلاء يقولون الرب واحد والواحد لا يصدر عنه الا واحد ويعنون بكونه واحدا انه ليس له صفة ثبوتية أصلا ولا يعقل فيه معان متعددة لان ذلك عندهم تركيب ولهذا يقولون لا يكون فاعلا وقابلا لان جهة الفعل غير جهة القبول وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب ومع هذا يقولون انه عاقل ومعقول وعقل وعاشق ومعشوق وعشق ولذيذ وملتذ ولذة الى غير ذلك من المعانى المتعددة ، ويقولون ان كل واحد من هذه الصفات هى الصفة الأخرى والصفة هى الموصوف والعلم هو القدرة وهو الارادة والعلم هو العالم وهو القادر ، ومن المتأخرين منهم من

قال العلم هو المعلوم فاذا تصور العاقل اقوالهم حق التصور تبين له ان
هذا الواحد الذى أثبتوه لا يتصور وجوده الا فى الاذهان لا فى الاعيان
وقد بسط الكلام عليه وبين فساد مايقولونه فى التوحيد والصفات وبين
فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة فى مواضع غير هذا واذا كان كذلك
فالاصل الذى بنوا عليه قولهم ان الواحد لا يصدر عنه الا واحد أصل
فاسد ، الثالث ان يقال قولهم بصدور الأشياء مع مافيها من الكثرة والحدوث
عن واحد بسيط فى غاية الفساد *

الرابع أنه لا يعلم فى العالم واحد بسيط صدر عنه شىء لا واحد ولا اثنان
فهذه الدعوة الكلية لا يعلم ثبوتها فى شىء أصلا ، الخامس أنهم يقولون صدر
عنه واحد وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك فيقال ان كان الصادر عنه
واحدا من كل وجه فلا يصدر عن هذا الواحد الا واحد أيضا فيلزم أن
يكون كل مافى العالم انما هو واحد عن واحد فهو مكابرة وان كان فى الصادر
الاول كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الاول مافيه كثرة ليس
واحدا من كل وجه فقد صدر عن الواحد ماليس بواحد ، ولهذا اضطرب
متأخروهم فأبو البركات صاحب المعتبر أبطل هذا القول ورده غاية الرد ، وابن
رشد الحفيد زعم ان الفلك بمافيه صادر عن الاول . والطوسى وزير الملاحدة
يقرب من هذا فجعل الاول شرطا فى الثانى والثانى شرطا فى الثالث وهم
مشتركون فى الضلال وهو اثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم
تزل ولا تزال معه لكن مسبوقة بعدم وجعل الفلك أيضا قديما أزليا وهذا
وحده فيه من مخالفة صريح المعقول والكفر بما جاءت به الرسل مافيه كفاية
فكيف اذا ضم اليه غير ذلك من أقاويلهم المخالفة للعقل والنقل * الوجه
السادس ان الصوادر المعلومة فى العالم انما تصدر عن اثنين واما واحد وحده

فلا يصدر عنه شىء كما تقدم التنبيه عليه فى المتولدات من الاعيان والاعراض وكل مايذكرونه من صدور الحرارة عن الحار والبرودة عن البارد والشعاع عن الشمس وغير ذلك فانما هو صدور اعراض ومع هذا فلا بد لها من أصلين ، وأما صدور الاعيان عن غيرها فهذا لايعلم الا بالولادة المعروفة وتلك لاتكون الا بانفصال جزء من الاصل وهذا الصدور والتولد والمعلولية التى يدعونها فى العقول والنفوس والافلاك يقولون انها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط فهذا من أبطل قول قيل فى الصدور والتولد لان فيه صدور جواهر عن جوهر واحد وهذا لايعقل وفيه صدوره من غير جزء منفصل من الاصل وهذا لايعقل وهم غاية ماعندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض الاعراض كالشعاع عن الشمس وحركة الخاتم عن حركة اليد وهذا تمثيل باطل لان تلك ليست علة فاعلة وانما هو شرط فقط والصادر هناك لم يكن عن أصل واحد بل عن أصلين والصادر عرض لاجوهر قائم بنفسه فتبين ان ماذكره هؤلاء من التولد العقلى الذى يدعونه من أبعد الامور عن التولد والصدور وهو أبعد من قول النصارى ومشركى العرب وهم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته ، وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه انه متولد عنه وحينئذ فهم فى دعواهم الهية العقول والنفوس والكواكب أكفر من هؤلاء . ومن جعل من المنتسبين الى الملل منهم هؤلاء هم الملكية فقوله فى جعل الملائكة متولدين عن شىء من قول العرب وعوام النصارى فان أولئك أثبتوا ولادة حسية وكونه صمدا يبطلها لكن ماأثبتوه معقول وهؤلاء ادعوا تولدا عقليا باطلا من كل وجه أبطل مما ادعته النصارى من تولد الكلمة عن الذات فكان نفى ماادعوه أولى من نفى ماادعاه أولئك لان المحال الذى يعلم امتناعه فى الخارج لايمكن تصوره موجودا فى الخارج

فانه يمتنع وجوده فى الخارج وذلك انما يمكن اذا كان له نظير من بعض
الوجوه فيقدر له فى الوجود الخارجى مايشبهه كما اذا قدر مع الله إلها آخر
وقدر أن له ولدا فانه يشبه من له ولد من العباد ومن له شريك من العباد
ثم يبين امتناع ذلك عليه فكل ماكان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان
أعظم استحالة والولادة التى ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة أبعد عن
مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التى ادعاها بعض مشركى العرب وعوام
النصارى واليهود فكانت هذه الولادة العقلية أشد استحالة من تلك الولادة
الحسية اذ الولادة الحسية تعقل فى الاعيان القائمة بنفسها وأما الولادة العقلية
فلا تعقل فى الاعيان أصلا ، وأيضا فأولئك أثبتوا ولادة من أصلين وهذا
هو الولادة المعقولة وهؤلاء أثبتوا ولادة من أصل واحد وأولئك أثبتوا
ولادة بانفصال جزء وهذا معقول وهؤلاء أثبتوا ولادة بدون ذلك وهو
لا يعقل وأولئك أثبتوا ولادة قاسوها على ولادة الاعيان للاعيان وهؤلاء
أثبتوا ولادة قاسوها على تولد الاعراض عن الاعيان فعلم ان قول أولئك
أقرب الى المعقول وهو باطل كما بين الله فساده وأنكره ، فقول هؤلاء أولى
بالبطلان وهذا كما ان الله اذا كفر من أثبت مخلوقا يتخذ شفيعا معبودا من
دون الله فمن أثبت قديما دون الله يعبد ويتخذ شفيعا كان أولى بالكفر
ومن أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله فمن أنكره مع
قوله بقدم هذا العالم فهو اعظم كفرا عند الله وهذا كما ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم
لما نهى أمته عن مشابهة فارس والروم النصارى *

فنهيه عن مشابهة اليونان المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم
واذا كان مادخل فى بعض المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس
والروم مذموما عند الله ورسوله فما دخل من مشابهة اليونان والهند

والترك المشركين وغيرهم من الامم الذين هم أبعد عن الاسلام من أهل الكتاب ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموما عند الله تعالى ، وأن يكون ذمه أعظم من ذاك ، فهؤلاء الامم الذين أبتلى بهم أواخر المسلمين شر من الامم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين وذلك لأن الاسلام كان أهله أعظم علما ودينا فاذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء غلبهم المسلمون لفضل علمهم ودينهم ، وأما هؤلاء المتأخرون المسلمون وان كانوا أنقص من سلفهم فانه يظهر رجحانهم على هؤلاء لعظم بعدهم عن الاسلام ولكن لما كثرت البدع من متأخرى المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء ولبسوا عليهم دينهم وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان لانهم انما ابتلوا بسيوف هؤلاء وألسنة هؤلاء وكان فيهم من نقص الايمان ما أورث ضعفا فى العلم والجهاد كما كان كثير من العرب في زمن النبي ﷺ فهذا هذا ٭

ومما يبين هذا أن مشركى العرب واليهود والنصارى يقولون ان الله خلق السموات والارض بمشيئته وقدرته بل يقولون انه خلق ذلك فى ستة أيام وهؤلاء المتفلسفة عند هم لم يحدثها بعد ان لم تكن فضلا عن ان يكون ذلك فى ستة أيام ثم يلبسون على المسلمين فيقولون العالم محدث يعنون بحدوثه انه معلول علة قديمة فهو بمنزلة قولهم متولد عن الله لكن هو أمر لاحقيقة له ولا يعقل ، وأيضا فمشركو العرب وأهل الكتاب يقرون بالملائكة وان كان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين نوعا واحدا فمن خرج منهم عن طاعة الله أسقطه وصار شيطانا وينكرون أن يكون ابليس كان أبا الجن وان يكون الجن ينكحون ويولدون ويأكلون ويشربون فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هذا مع كفرهم هم خير من هؤلاء

المتفلسفة فان هؤلاء لا حقيقة للملائكة عندهم الا ما يثبتونه من العقول والنفوس أو من اعراض تقوم بالأجسام كالقوى الصالحة وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها فان العرب كانت تثبت الجن وكذلك أكثر أهل الكتاب وهؤلاء لا يثبتونها ويجعلون الشياطين القوى الفاسدة ، وأيضا فمشركو العرب مع أهل الكتاب يدعون الله ويقولون انه يسمع دعاءهم ويجيبهم *

وهؤلاء عندهم لا يعلم شيئا من جزئيات العالم ولا يسمع دعاء أحد ولا يجيب أحدا ولا يحدث فى العالم شيئا ولا سبب للحدوث عندهم الا حركات الفلك والدعاء عندهم يؤثر لأنه تصرف النفس الناطقة فى هيولى العالم ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال يقول الله عز وجل : « شتمنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك وكذبنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك فاما شتمه اياى فقوله انى اتخذت ولدا وانا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد وأما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من اعادته وهذا وان كان متنا ولا قطعا لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا كما قال تعالى (ويقول الانسان ائذا مامت لسوف أخرج حيا) الى قوله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه) فذكر هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الاولى فان هؤلاء ينكرون الاعادة والابتداء أيضا فلا يقولون ان الله ابتدأ خلق السموات والارض ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم ، وأما شتمهم أياه بقولهم اتخذ ولدا فهؤلاء هم عندهم الفلك كله لازم له معلول له أعظم من لزوم الولد والده والوالد له اختيار وقدرة فى حدوث الولد منه ، وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة فى لزوم الفلك له بل ولا يمكنه ان يدفع لزومه عنه فالتولد الذى يثبتونه أبلغ من التولد

الموجود فى الخلق ولا يقولون انه اتخذ ولدا بقدرته فانه لا يقدر عندهم على
تغيير شىء من العالم بل ذلك لازم له لزوما حقيقته انه لم يفعل شيئا بل
ولاهو موجود وان سموه علة ومعلولا فعند التحقيق لا يرجعون الى شىء
محصل فان فى قولهم من التناقض والفساد أعظم مما فى قول النصارى وقد
ذكر طائفة من أهل الكلام ان قولهم بالعلة والمعلول من جنس قول غيرهم
بالوالد والولد وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم فى الذم وهذا تقصير
عظيم بل أولئك خير من هؤلاء وهؤلاء اذا حققت ما يقوله من هو أقربهم
الى الاسلام كابن رشد الحفيد وجدت غايته ان يكون الرب شرطا فى وجود
العالم لا فاعلا له ، وكذلك من سلك مسلكهم من المدعين للتحقيق من ملاحدة
الصوفية كابن عربى وابن سبعين حقيقة قولهم ان هذا العالم موجود واجب
أزلى ليس له صانع غير نفسه وهم يقولون الوجود واحد وحقيقة قولهم
انه ليس فى الوجود خالق خلق موجودا آخر وكلامهم فى المعاد والنبوات شر
من كلام اليهود والنصارى وعباد الاصنام فان هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم
فى العالم لا يخصون بعض الاصنام بالعبادة ٭

﴿فصل﴾ وقد احتج بسورة الاخلاص من أهل الكلام المحدث
من يقول الرب تعالى جسم كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم . ومحمد بن
كرام . وغيرهما ومن ينفى ذلك يقول ليس بجسم ممن وافق جهم بن صفوان
وأبا الهذيل العلاف ونحوهما فأولئك قالوا : هو صمد والصمد لا جوف
له وهذا انما يكون فى الاجسام المصمتة فانها لا جوف لها كما فى الجبال والصخور
وما يصنع من عواميد الحجارة فكما قيل : ان الملائكة صمد ولهذا قيل انه
لا يخرج منه شىء ولا يدخل فيه شىء ولا يأكل ولا يشرب ونحو ذلك ونفى
هذا لا يعقل الا عمن هو جسم وقالوا أصل الصمد الاجتماع ومنه تصميد

المال وهذا انما يعقل فى الجسم المجتمع وأما النفاة فقالوا الصمد الذى لا يجوز عليه التفرق والانقسام وكل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق والانقسام *
وقالوا أيضا الاحد الذى لا يقبل التجزى والانقسام وكل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق والتجزى والانقسام ، وقالوا اذا قلتم هو جسم كان مركبا مؤلفا من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة وما كان مركبا مؤلفا من غيره كان مفتقرا اليه وهو سبحانه صمد والصمد الغنى عما سواه فالمركب لا يكون صمدا فيقال أما القول بانه سبحانه مركب مؤلف من أجزاء وانه يقبل التجزى والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعا وعقلا فان هذا ينافى كونه صمدا كما تقدم وسواء أريد بذلك انه كانت الاجزاء متفرقة ثم اجتمعت أوقيل انها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض كما فى بدن الانسان وغيره من الأجسام فان الانسان وان كان لم يزل مجتمع الأعضاء لكن يمكن أن يفرق بين بعضه وبعض والله منزه عن ذلك ، ولهذا قدمنا ان كمال الصمدية له فان هذا انما يجوز على ما يجوز أن يفنى بعضه أو يعدم وما قبل العدم لم يكن واجب الوجود بذاته ولا قديما أزليا فان ما وجب قدمه امتنع عدمه وكذلك صفاته التى لم يزل موصوفا بها وهى من لوازم ذاته فيمتنع أن يعدم اللازم الا مع عدم الملزوم ولهذا قال من قال من السلف الصمد هو الدائم وهو الباقى بعد فناء خلقه فان هذا من لوازم الصمدية اذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمدا ولا تنتفى عنه الصمدية الا بجواز العدم عليه وذلك محال فلا يكون مستوجبا للصمدية الا اذا كانت لازمة له وذلك ينافى عدمه وهو مستوجب للصمدية لم يصر صمدا بعد ان لم يكن تعالى وتقدس فان ذلك يقتضى انه كان متفرقا فجمع وانه مفعول محدث مصنوع وهذه صفة مخلوقاته وأما الخالق القديم الذى يمتنع

عليه أن يكون معدوما أو مفعولا أو محتاجا الى غيره بوجه من الوجوه فلا يجوز
عليه شيء من ذلك فعلم انه لم يزل صمدا ولا يزال صمدا فلا يجوز أن يقال كان
متفرقا فاجتمع ولا أنه يجوز أن يتفرق بل ولا ان يخرج منه شيء ولا يدخل
فيه شيء وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين سنيهم و بدعيهم وان كان
أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك فمثل هؤلاء لا تنضبط
خيالاتهم الفاسدة كما أنه ليس فى طوائف المسلمين من يقول انه مولود
و والد وان كان هذا قد قاله بعض الكفار وقد قال المتفلسفة المنسوبون
الى الاسلام من التولد و التعليل ماهو شر من قول أولئك وأما اثبات الصفات
له وأنه يرى فى الآخرة وانه يتكلم بالقرآن وغيره وكلامه غير مخلوق فهذا مذهب
الصحابة و التابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة من
جميع الطوائف والخلاف فى ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة وكثير من
الفلاسفة و الباطنية ، وهؤلاء يقولون ان اثبات الصفات يوجب أن يكون
جسما وليس بجسم فلا تثبت له الصفات قالوا لأن المعقول من الصفات
اعراض قائمة بجسم لا تعقل صفته الا كذلك قالوا والرؤية لا تعقل الا
مع المعاينة فالمعاينة لا تكون الا اذا كان المرئى بجهة ولا يكون بجهة الا
ما كان جسما قالوا : ولأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسما فلا
يكون الكلام المضاف اليه الا مخلوقا منفصلا عنه ، وهذه المعانى مما ناظروا
بها الامام أحمد فى المحنة ، وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفى
التجسيم أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث تلميذ حسين النجار وهو من
أكابر المتكلمين فان ابن أبى دؤاد كان قد جمع للامام أحمد من
أمكنه من متكلمى البصرة و بغداد وغيرهم ممن يقول ان القرآن مخلوق
وهذا القول لم يكن مختصا بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس فان كثيرا من

اولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة وبشر المريسى لم يكن من المعتزلة بل فيهم نجارية ومنهم برغوث * وفيهم ضرارية . وحفص الفرد الذى ناظر الشافعى كان من الضرارية أتباع ضرار بن عمرو * وفيهم مرجئة ومنهم بشر المريسى ، ومنهم جهمية محضة ، ومنهم معتزلة ، وابن أبى دؤاد لم يكن معتزليا بل كان جهميا ينفى الصفات والمعتزلة تنفى الصفات فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة فلما احتج عليه برغوث بأنه لو كان يتكلم ويقوم به الكلام لكان جسما وهذا منفى عنه ، وأحمد وأمثاله من السلف كانوا يعلمون ان هذه الألفاظ التى ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها إلى نفى ما أثبته الله تعالى رسوله ويثبتها قوم ليتوصلوا باثباتها الى اثبات مانفاه الله ورسوله *

فالأول طريقة الجهمية من المعتزلة وغيرهم ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون ان قصدهم التنزيه ومقصودهم بذلك ان الله لا يرى فى الآخرة وانه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل خلق كلاما فى غيره وانه ليس له علم يقوم به ولا قدرة ولا حياة ولا غير ذلك من الصفات ، قال الامام أحمد فى خطبته فى الرد على الجهمية والزنادقة : الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لابليس قد أحيوه وكم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون فى كتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفى كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون

عليهم فنعوذ بالله من نتن الضالين ٭

والثانية طريقة هشام وأتباعه يحكى عنهم انهم أثبتوا ماقد نزه الله نفسه عنه من اتصافه بالنقائص ومماثلته للمخلوقات ، فاجابهم الامام أحمد بطريقة الانبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بكتاب الله الذى قال فيه (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) وقال تعالى (المص كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ماأنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) وقال تعالى (فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال (ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ٭

وقال (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل

من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا واذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا وماأرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وقوله تعالى: (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقوله تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) وقوله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) وقوله (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فهذه النصوص وغيرها تبين ان الله ارسل الرسل وانزل الكتب لبيان الحق من الباطل وبيان مااختلف فيه الناس وأن الواجب على الناس اتباع ماأنزل اليهم من ربهم ورد مايتنازعون فيه الى الكتاب والسنة وان من لم يتبع ذلك كان منافقا وان من اتبع الهدى الذى جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذلك حشر ضالا شقيا معذبا، وأن الذين فارقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم *

فاتبع الامام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة المتبعين ما أنزل اليهم من ربهم وذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبته لنفسه فى كتابه أثبتناه وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه وكل لفظ وجد فى الكتاب والسنة بالاثبات أثبت ذلك اللفظ وكل لفظ وجد منفيا نفى ذلك اللفظ ، وأما الالفاظ التى لا توجد فى الكتاب والسنة بل ولا فى كلام الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين لا اثباتها ولا نفيها *

وقد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفى الا بعد الاستفسار عن معانيها فان وجدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبتت وان وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت وان وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل أو نفى به حق وباطل أو كان مجملا يراد به حق أو باطل وصاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق اثباتها ولا نفيها كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التى تدخل فى هذا المعنى فقل من تكلم بها نفيا أو إثباتا الا وأدخل فيها باطلا وان أراد بها حقا والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل وكذب وقول على الله بلا علم ، وكذلك ذكر أحمد فى رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه ويقولون عليه بغير علم وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة ولا يخالف الكتاب والسنة الا ما هو باطل لا يصح بعقل ولا سمع ، ولهذا لما سئل أبو العباس بن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين : وقال وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض فى

الجوهر والاعراض وانما بعث النبي ﷺ بانكار ذلك ولم يرد بذلك
أنه أنكر هذين اللفظين فانهما لم يكونا قد أحدثا فى زمنه وانما أنكر مايعنى
بهما من المعانى الباطلة فان أول من أحدثها الجهمية والمعتزلة وقصدهم
بذلك انكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به
وأنكرت الجهمية أسماءه أيضا ، وأول من عرف عنه انكار ذلك الجعد بن
درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسرى بواسط ، وقال يا أيها الناس ضحوا
تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يتخذ
ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا
ثم نزل فذبحه ، وكلام السلف والأئمة فى ذم هذا الكلام وأهله مبسوط
فى غير هذا الموضع ، والمقصود هنا أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره
كانوا اذا ذكرت لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز
ونحوها لم يوافقهم لا على اطلاق الاثبات ولا على اطلاق النفى وأهل
البدع بالعكس ابتدعوا ألفاظا ومعانى اما فى النفى واما فى الاثبات وجعلوها
هى الاصل المعقول المحكم الذى يجب اعتقاده والبناء عليه ثم نظروا فى الكتاب
والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه والا قالوا هذا من الالفاظ
المتشابهة المشكلة التى لا ندرى ما أريد بها فجعلوا بدعهم أصلا محكما وما جاء
به الرسول فرعا له ومشكلا اذا لم يوافقه ، وهذا أصل الجهمية والقدرية
وأمثالهم وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية جميع كتبهم توجد على
هذا الطريق ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين
الصراط المستقيم الذى بعث الله به رسوله وبين السبيل المخالفة له وكذلك
الحكم فى المسائل العلمية الفقهية ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك
كل هذه الامور قد دخل فيها ألفاظ ومعان محدثة وألفاظ ومعان مشتركة

فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتب والحكمة أصلا فى جميع هذه الأمور ثم يرد ماتكلم فيه الناس الى ذلك و يبين مافى الالفاظ المجملة من المعانى الموافقة للكتاب والسنة فتقبل ومافيها من المعانى المخالفة للكتاب والسنة فترد *

ولهذا كل طائفة أنكر عليها ماابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى كما يوجد فى ألفاظ أهل الرأى والكلام والتصوف وأن يجوز أن يقال فى بعض الآيات انه مشكل ومتشابه اذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة فاذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر وجاء نص آخر يظن أن ظاهره يخالف ذلك يقال فى هذا أنه يرد به المتشابه الى المحكم اما اذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجز أن يجعل مايضاد ذلك المعنى هو الأصل ويجعل مافى القرآن والسنة مشكلا متشابها فلا يقبل مادل عليه نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لايفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة اليهم لعجزفهمهم عن معانيها ولايجوز أن يكون فى القرآن مايخالف صريح العقل أو الحس الاوفى القرآن بيان معناه فان القرآن جعله الله شفاءاً لمافى الصدور وبيانا للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن قد تخفى آثار الرسالة فى بعض الامكنة والازمنة حتى لايعرفون ماجاء به الرسول ﷺ اما أن لايعرفوا اللفظ واما أن يعرفوا اللفظ ولايعرفوا معناه فحينئذ يصيرون فى جاهلية بسبب عدم نور النبوة ، ومن هاهنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعا كالفتن التى تحدث بالسيف فالفتن القولية والعملية هى من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم كما قال مالك بن أنس : اذا قل العلم ظهر الجفاء واذا قلت الآثار ظهرت الاهواء. ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم ولهذا قال أحمد فى خطبته : الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة بقايا من أهل العلم

فالهدى الحاصل لأهل الأرض انما هو من نور النبوة كما قال تعالى: (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) فأهل الهدى والفلاح هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون فى كل زمان ومكان وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للأنبياء بنفى أهل الجاهلية الذين لم يصل اليهم ماجاءت به الأنبياء *

فهؤلاء فى ضلال وجهل وشرك وشر لكن الله يقول (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون) فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل اليهم رسولا ، وقد رويت آثار متعددة فى ان من لم تبلغه الرسالة فى الدنيا فانه يبعث اليه رسول يوم القيامة فى عرصات القيامة ، وقد زعم بعضهم ان هذا يخالف دين المسلمين فان الآخرة لا تكليف فيها وليس كما قال انما ينقطع التكليف اذا دخلوا دار الجزاء الجنة والنار والا فهم فى قبورهم ممتحنون ومفتونون يقال لأحدهم من ربك؟ وما دينك ومن نبيك ، وكذلك فى عرصات القيامة يقال ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ومن كان يعبد القمر القمر ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير الصورة التى رأوه فيها أول مرة ويقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، وفى رواية فيسألهم ويثبتهم وذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذى عرفوا أنه الله الذى تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم فى فتنة القبر فاذا لم يتبعوه لكونه أتى فى غير الصورة التى يعرفون أتاهم حينئذ فى الصورة التى يعرفون فيكشف

عن ساق فاذا رأوه خروا له سجدا الا من كان منافقا فانه يريد السجود فلا يستطيعه يبقى ظهره مثل الطبق ، وهذا المعنى مستفيض عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي هريرة . وأبي سعيد وقد أخرجاهما في الصحيحين ومن حديث جابر وقد رواه مسلم وفي حديث ابن مسعود وأبي موسى وهو معروف من رواية أحمد وغيره ، فدل ذلك على أن المحنة انما تنقطع اذا دخلوا دار الجزاء وما قبل دار الجزاء دار امتحان وابتلاء فاذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني الثالثة سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم فاعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها والبأس مشتق من البؤس قال تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه لما نزل قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال أعوذ بوجهك (أو من تحت أرجلكم) قال أعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال هاتان أهون فدل على أنه لابد ان يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم باس بعض مع براءة الرسول في هذه الحال وهم فيها في جاهلية ولهذا قال الزهري وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون فاجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية ، وقد روى مالك باسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها انها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية قوله تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فان المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب

الاصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية وهكذا مسائل النزاع التى تنازع فيها الأمة فى الاصول والفروع اذا لم ترد الى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم فان رحمهم الله أقر بعضهم بعضا ولم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة فى خلافة عمر وعثمان يتنازعون فى بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضا ولا يعتدى عليه وان لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض اما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه وأما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله ، وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم يظلمون الأمة ويعتدون عليهم اذا نازعوهم فى بعض مسائل الدين وكذلك سائر أهل الاهواء فانهم يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها كما يفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منع حقه وعقوبته فالناس اذا خفى عليهم بعض ما بعث الله به الرسول اما عادلون واما ظالمون فالعادل فيهم الذى يعمل بما وصل اليه من آثار الانبياء ولا يظلم غيره والظالم الذى يعتدى على غيره وهؤلاء يظلمون مع علمهم بانهم يظلمون كما قال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) والا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضا كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم انهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله فى تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول وقالوا هذا غاية ما قدرنا عليه ، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ولا يعتدى عليه بقول ولا فعل مثل أن يدعى أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبديها ويذم من يخالفه مع أنه معذور *

وكان الذين امتحنوا أحمد وغيره من هؤلاء الجاهلين فابتدعوا كلاما متشابها نفوا به الحق فأجابهم أحمد لما ناظروه فى المحنة وذكروا الجسم ونحو ذلك وأجابهم بأنى أقول كما قال الله تعالى : (الله أحد الله الصمد) وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث ليس على أحد أن يتكلم به البتة والمعنى الذى يراد به مجمل ولم تبينوا مرادكم حتى نوافقكم على المعنى الصحيح فقال ما أدرى ما تقولون لكن أقول : (الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) يقول ما أدرى ما تعنون بلفظ الجسم فانا لا أوافقكم على إثبات لفظ ونفيه اذا لم يرد الكتاب والسنة باثباته ولا نفيه ان لم يدر معناه الذى عناه المتكلم فان عنى فى النفى أو الاثبات ما يوافق الكتاب والسنة وافقناه وان عنى ما يخالف الكتاب والسنة فى النفى والاثبات لم نوافقه *

ولفظ الجسم والجوهر ونحوهما لم يأت فى كتاب ولا سنة ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وسائر أئمة المسلمين التكلم بهما فى حق الله تعالى لا بنفى ولا اثبات ، ولهذا قال أحمد فى رسالته الى المتوكل لا أحب الكلام فى شىء من ذلك الا ما كان فى كتاب الله أو فى حديث عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة والتابعين وأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود ، وذكر أيضا فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون ليس فيه كذا ولا كذا وهو كما قال فان للفظ الجسم فى اللغة التى نزل بها القرآن معنى كما قال تعالى: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) وقال تعالى (وزاده بسطة فى العلم والجسم) قال ابن عباس : كان طالوت أعلم بنى إسرائيل بالحرب وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه والبسطة السعة ، قال ابن قتيبة هو من قولك بسطت الشىء اذا كان مجموعا ففتحته ووسعته قال بعضهم ، والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة اذ العادة أن من

كان أعظم جسما كان أكثر قوة فهذا لفظ الجسم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن ، قال الجوهرى قال أبو زيد الأنصارى : الجسم الجسد وكذلك الجسمان والجثمان وقال الأصمعى الجسم والجسمان والجسد والجثمان واحد وقال جماعة جسم الانسان يقال له الجسمان وقد جسم الشيء أى عظم فهو جسيم وجسام والجسام بالكسر جمع جسيم قال أبو عبيدة تجسمت فلانا من بين القوم اى اخترته كأنك قصدت جسمه كما تقول تأتيته أى قصدت أتيه وشخصه ، وأنشد أبو عبيدة *

تجسمته من بينهن بمرهف

وتجسمت الأرض اذا أخذت نحوها تريدها وتجسم من الجسم ، وقال ابن السكيت : تجسمت الأمر اى ركبت أجسمه وجسيمه أى معظمه قال وكذلك تجسمت الرمل والجبل أى ركبت أعظمه ، والأجسم الأضخم قال عامر بن الطفيل *

لقد علم الحى من عامر　　بأن لنا الذروة الاجسما

فهذا الجسم فى لغة العرب ، وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم ولا للنفس الخارج من الانسان جسم ولا لروحه المنفوخة فيه جسم ، ومعلوم أن الله سبحانه لا يماثل شيئا من ذلك لا بدن الانسان ولا غيره فلا يوصف الله بشيء من خصائص المخلوقين ولا يطلق عليه من الأسماء ما يختص بصفات المخلوقين فلا يجوز أن يقال هو جسم ولا جسد (وأما أهل الكلام) فالجسم عندهم أعم من هذا وهم مختلفون فى معناه اختلافا كثيرا عقليا واختلافا لفظيا اصطلاحيا فهم يقولون كل ما يشار اليه اشارة حسية فهو جسم ثم اختلفوا بعد هذا فقال كثير منهم كل ما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة ، ثم منهم من قال : الجسم أقل ما يكون جوهراً بشرط أن ينضم اليه غيره وقيل بل

الجوهران والجواهر فصاعدا ، وقيل بل أربعة فصاعدا وقيل بل ستة وقيل بل ثمانية وقيل بل ستة عشر وقيل بل اثنان وثلاثون وهذا قول من يقول ان الأجسام كلها مركبة من الجواهر التى لا تنقسم * وقال آخرون من أهل الفلسفة كل الأجسام مركبة من الهيولى والصورة لا من الجواهر الفردة *

وقال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا وهذا قول الهشامية والكلابية والضرارية وغيرهم من الطوائف الكبار لا يقولون بالجوهر الفرد ولا بالمادة والصورة وآخرون يدعون اجماع المسلمين على اثبات الجوهر الفرد كما قال أبو المعالى وغيره: اتفق المسلمون على ان الأجسام تتناهى فى تجزئها وانقسامها حتى تصير افرادا ومع هذا فقد شك هو فيه وكذلك شك فيه أبو الحسين البصرى . وأبو عبد الله الرازى ومعلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين ، وأول من قال ذلك فى الاسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة وهذا من الكلام الذى ذمه السلف وعابوه ولكن حاكى هذا الاجماع لما لم يعرف أصول الدين الامافى كتب الكلام ولم يجد الامن يقول بذلك اعتقد هذا اجماع المسلمين والقول بالجوهر الفرد باطل والقول بالهيولى والصورة باطل ، وقد بسط الكلام على هذه المقالات فى موضع آخر *

وقال آخرون : الجسم هو القائم بنفسه وكل قائم بنفسه جسم وكل جسم فهو قائم بنفسه وهو مشار اليه واختلفوا فى الاجسام هل هى متماثلة أم لا على قولين مشهورين ، واذا عرف ذلك فمن قال إنه جسم وأراد أنه مركب من الاجزاء فهذا قوله باطل وكذلك ان أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل ان الله ليس كمثله شىء فى شىء من صفاته فمن أثبت

لله مثلا فى شىء من صفاته فهو مبطل ومن قال إنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل ومن قال ليس بجسم بمعنى أنه لا يرى فى الآخرة ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من الصفات ولا ترفع الأيدى اليه فى الدعاء ولا عرج بالرسول اليه ولا يصعد اليه الكلم الطيب ولا تعرج الملائكة والروح اليه فهذا قول باطل وكذلك كل من نفى ما أثبته الله ورسوله وقال ان هذا تجسيم فنفيه باطل وتسمية ذلك تجسيما تلبيس منه فانه ان أراد أن هذا يقتضى ان يكون جسما مركبا من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أو ان هذا يقتضى ان يكون جسما والاجسام متماثلة قيل له أكثر العقلاء يخالفونك فى تماثل الاجسام المخلوقة وفى أنها مركبة فلا يقولون ان الهواء مثل الماء ولا أبدان الحيوان مثل الحديد والجبال فكيف يوافقونك على أن الرب يكون مماثلا لخلقه اذا أثبتوا له ما أثبت الكتاب والسنة والله قد نفى المماثلات فى بعض المخلوقات وكلاهما جسم كقوله : (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) مع ان كلاهما بشر فكيف يجوز أن يقال اذا كان لرب السموات علم وقدرة انه يكون مماثلا لخلقه والله تعالى ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، ونكتة الأمر ان الجسم فى اعتقاد هذا النافى يستلزم مماثلة سائر الاجسام ويستلزم أن يكون مركبا من الجواهر الفردة او من المادة والصورة وأكثر العقلاء يخالفونه فى التلازم وهذا التلازم منتف باتفاق الفريقين وهو المطلوب فاذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفى عن الله شرعا وعقلا بقى بحثهم فى الجسم الاصطلاحى هل هو مستلزم لهذا المحذور ؟ وهو بحث عقلى كبحث الناس فى الارض هل تبقى أو لا تبقى وهذا البحث العقلى لم يرتبط به دين المسلمين بل لم ينطق كتاب ولا سنة ولا أثر من السلف بلفظ الجسم فى حق الله لا نفيا ولا اثباتا

فليس لأحد أن يبتدع اسما مجملا يحتمل معانى مختلفة لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين ولو كان قد نطق باللغة العربية فكيف اذا أحدث للفظ معنى آخر *

والمعنى الذى يقصده اذا كان حقا عبر عنه بالعبارة التى لا لبس فيها فاذا كان معتقده ان الاجسام متماثلة وأن الله ليس كمثله شىء وهو سبحانه لاسمى له ولا كفؤ له ولا ند له فهذه عبارات القرآن تؤدى هذا المعنى بلا تلبيس ولا نزاع وان كان معتقده ان الاجسام غير متماثلة وان كل ما يرى ويقوم به من الصفات فهو جسم فان عليه أن يثبت ما أثبته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته كقوله (ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء) وقوله (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقوله عليه السلام فى حديث الاستخارة «اللهم انى استخيرك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق» ويقول كما قال رسول الله ﷺ «انكم ترون ربكم يوم القيامة عيانا كما ترون الشمس والقمر لا تضامون فى رؤيته» فشبه الرؤية بالرؤية وان لم يكن المرئى كالمرئى *

فهذه عبارات الكتاب والسنة عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبيس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة وأقوال الصحابة ، ثم بعد هذا من كان تبين له معنى من جهة العقل انه لازم للحق لم يدفعه عن عقله فلازم الحق حق لكن ذلك المعنى لا بد أن يدل الشرع عليه فيثبته بالألفاظ الشرعية وان قدر ان الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده وحينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس اليه وان قدر أنه فى نفسه حق *

﴿ومسألة﴾ تماثل الأجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام وكثير منهم يقول بهذا تارة وبهذا تارة وأكثر ذلك لأجل الألفاظ المجملة والمعانى المتشابهة وقد بسط الكلام عليه فى غير

هذا الموضع لكن المقصود هنا أنه لو قدر ان الانسان تبين له ان الأجسام ليست متماثلة ولا مركبة لامن هذا ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع فى دين الاسلام قوله ان الله جسم ويناظر على المعنى الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة بل يكفيه اثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية ولو قدر أنه تبين له أن الأجسام متماثلة وأن الجسم مركب لم يكن له أن يبتدع القول بهذا الاسم ويناظر على معناه الذى اعتقده بعقله بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن اظهاره بعبارة لا إجمال فيها ولا تلبيس والذين يقولون ان الجسم مركب من الجواهر يدعى كثير منهم انه كذلك فى لغة العرب لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا يريدون به أنه أكثر أجزاء منه ويقولون هذا جسيم أى كثير الأجزاء قال والتفضيل بصيغة أفعل انما يكون لما يدل عليه الاسم فاذا قيل هذا أعلم وأحلم كان ذلك دالا على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم فلما قالوا أجسم لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب فمن قال جسم وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب قالوا : وهذه تخطئة فى اللفظ وان كنا لانكفره اذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف وقد نازعهم بعضهم فى قولهم هذا أجسم من هذا وقالوا ليس هذا اللفظ من لغة العرب كما يحكى عن أبى زيد فيقال له لاريب ان العرب تقول هذا جسيم أى عظيم الجثة وهذا أجسم من هذا أى أعظم جثة لكن كون العرب تعتقد أن ذلك لكثرة الأجزاء التى هى الجواهر الفردة انما يكون اذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون ان الجسم مركب من الجواهر الفردة والجوهر الفرد هو شىء قد بلغ من الصغر والحقارة الى أنه لايتميز يمينه من يساره ، ومعلوم أن أكثر العقلاء من بنى آدم لايتصور الجوهر الفرد والذين يتصورونه أكثرهم لايثبتونه

والذين أثبتوه انما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة فيمتنع أن يكون اللفظ الشائع فى اللغة التى ينطق بها خواصها وعوامها أرادوا به هذا .

وقد علم بالاضطرار ان أحدا من الصحابة والتابعين لهم باحسان لم ينطق باثبات الجوهر الفرد ولا بما يدل على ثبوته عنده بل ولا العرب قبلهم ولا سائر الأمم الباقين على الفطرة ولا اتباع الرسل فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا لفظ جسم الا لما كان مركبا مؤلفا ولو قلت لمن شئت من العرب الشمس والقمر والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزى أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى الا بعد كلفة ، ثم اذا تصوره قد يكذبه بفطرته ويقول كيف يمكن ان يكون شيء لا يتميز منه جانب عن جانب وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد فالفقهاء قاطبة تنكره وكذلك أهل الحديث والتصوف ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة بعض الأجسام الى بعض كاستحالة العذرة رمادا والخنزير ملحا ، ثم تكلموا فى هذه الاستحالة هل تظهر أم لا تظهر ؟ والقائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم بل تلك الجواهر التى كانت فى الأول هى بعينها فى الثانى وانما اختلف التركيب ولهذا يتكلم بلفظ التركيب فى الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين ويقول ان الماء يفارق غيره فى التركيب فقط وكذلك القائلون بالجوهر الفرد عندهم انا لم نشاهد قط احداث الله لشيء من الأعيان القائمة بنفسها وان جميع ما يخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر والسحاب وغير ذلك انما هو جمع الجواهر وتفريقها وتغيير صفاتها من حال الى حال لا انه يبدع شيئا من الجواهر والأجسام القائمة بأنفسها وهذا القول أكثر العقلاء ينكره ويقول : هو مخالف للحس والعقل

والشرع فضلا عن أن يكون الجسم فى لغة العرب مستلزما لهذا المعنى ، ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه وهو عرض قائم بغيره وقد يراد به الشيء الغليظ وهو القائم بنفسه فنقول هذا الثوب له جسم أى غلظ وقوله (وزاده بسطة فى العلم والجسم) قد يحتج به على هذا فانه قرن الجسم بالعلم الذى هو مصدر فنقول المعنى زاده بسطة فى قدره فجعل قدر بدنه أكبر من بدن غيره فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر ٭

وكذلك قوله (تعجبك أجسامهم) أى صورهم القائمة بأبدانهم كما تقول أعجبنى حسنه وجماله ولونه وبهاؤه فقد يراد صفة الابدان وقد يراد نفس الابدان وهم اذا قالوا هذا أجسم من هذا أرادوا به أغلظ وأعظم منه اما كونهم يريدون بذلك ان ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الاجزاء فهذا مما يعلم قطعا انه لم يخطر ببال أهل اللغة الا من أخذ ذلك عمن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذى أحدث فى الاسلام بعد انقراض عصر الصحابة وأكثر التابعين فان هذا لم يعرف في الاسلام من تكلم به أو بمعناه الا فى أواخر الدولة الأموية لما ظهر جهم بن صفوان والجعد بن درهم ثم ظهر فى المعتزلة فقد تبين ان من قال الجسم هو المؤلف المركب واعتقد ان الاجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقليا ينازعه فيه أكثر العقلاء من بنى آدم ولم ينقل عن أحد من السلف انه وافقه عليه وجعل لفظ الجسم فى اصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ فى اللغة فقد غير معنى اللفظ فى اللغة وادعى معنى عقليا فيه نزاع طويل وليس معه من الشرع ما يوافق ما ادعاه من معنى اللفظ ولا ما ادعاه من المعنى العقلى فاللغة لا تدل على ما قال والشرع لا يدل على ما قال والعقل لم يدل على مسميات الالفاظ وانما يدل على المعنى المجرد وذلك فيه نزاع طويل ونحن نعلم بالاضطرار ان ذلك المعنى

الذى وجب نفيه عن الله لايحتاج نفيه الى ماأحدثه هذا من دلالة اللفظ
ولاماادعاه من المعنى العقلى بل الذين جعلوا هذا عمدتهم فى تنزيه الرب
على نفى مسمى الجسم لايمكنهم أن ينزهوه عن شىء من النقائص البتة فانهم
اذا قالوا : هذا من صفات الاجسام فكل مايثبتونه هو أيضا من صفات
الاجسام مثل كونه حيا عليما قديرا بل كونه موجودا قائما بنفسه فانهم
لايعرفون هذا فى الشاهد الاجسما ، فاذا قال المنازع انا أقول فيما نفيتموه
نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا ثم هؤلاء لهم فى استحقاق الرب لصفات
الكمال عندهم هل علمه بالاجماع فقط أو علمه بالعقل أيضا فيه قولان فمن
قال ان ذلك لم نعلمه بالعقل كأبى المعالى والرازى وغيرهما لم يبق معهم دليل
عقلى ينزهون به الرب عن كثير من النقائص هذا اذا لم ينف الا مايجب
نفيه عن الله مثل نفيه للنقائص فانه يجب تنزيه الرب عنها وينفى عنه مماثلة
المخلوقات فانه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه
عن أن يماثله شىء من المخلوقات فى شىء من صفات الكمال الثابتة له وهذان
النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله وقل هو الله أحد دلت على النوعين
فقوله أحد مع قوله لم يكن له كفوا أحد ينفى المماثلة والمشاركة ، وقوله صمد
يتضمن جميع صفات الكمال فالنقائص جنسها منفى عن الله تعالى وكل مااختص
به المخلوق فهو من النقائص التى يجب تنزيه الرب عنها بخلاف مايوصف
به الرب ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك
فان هذه ليست نقائص بل ماثبت لله من هذه المعانى فانه يثبت لله على وجه
لايقاربه فيه أحد من المخلوقات فضلا عن أن يماثله فيه بل ماخلقه الله فى
الجنة من المآكل والمشارب والملابس لايماثل ماخلقه فى الدنيا وان اتفقا
فى الاسم وكلاهما مخلوق قال ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الاسماء

فقد أخبر الله ان فى الجنة لبنا وخمرا وعسلا وماء وحريرا وذهبا وفضة ،
وتلك الحقائق ليست مثل هذه وكلاهما مخلوق فالخالق تعالى أبعد من مماثلة
المخلوقات من المخلوقات الى المخلوق وقد سمى الله نفسه عليما حليما رؤفا رحيما
سميعا بصيرا عزيزا ملكا جبارا متكبرا مؤمنا عظيما كريما غنيا شكورا كبيرا
حفيظا شهيدا حقا وكيلا وليا ، وسمى أيضا بعض مخلوقاته بهذه الاسماء فسمى
الانسان سميعا بصيرا وسمى نبيه رءوفا رحيما وسمى بعض عباده ملكا
وبعضهم شكورا وبعضهم عظيما وبعضهم حليما وعليما وسائر ماذكر من
الاسماء مع العلم انه ليس المسمى بهذه الاسماء من المخلوقين مماثلا للخالق
جل جلاله فى شىء من الاشياء وكذلك النزاع فى لفظ التحيز والجهة
ونحو ذلك فمن الناس من يقول هو متحيز وهو فى جهة ، ومنهم من يقول
ليس بمتحيز وليس فى جهة ، ومنهم من يقول هو فى جهة وليس بمتحيز ولفظ
المتحيز يتناول الجسم والجوهر الفرد ولفظ الجوهر قد يراد به المتحيز
وقد يراد به الجوهر الفرد ، ومن الفلاسفة من يدعى اثبات جواهر قائمة
بانفسها غير متحيزة ومتأخرو أهل الكلام كالشهرستانى والرازى والآمدى
ونحوهم يقولون ليس فى العقل مايحيل ذلك ولهذا كان من سلك سبيل هولاء
وهو انما يثبت حدوث العالم بحدوث الاجسام يقول بتقدير وجود جواهر
عقلية فليس فى هذا الدليل مايدل على حدوثها ولهذا صار طائفة ممن
خلط الكلام بالفلسفة الى قدم الجواهر العقلية وحدوث الاجسام وان السبب
الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس وكان يقول بهذا
بعض أعيان المصريين وكذلك الآرموى صاحب اللباب الذى أجاب عن
شبهة الفلاسفة على دوام الفاعلية المتضمنة انه لابد للحدوث من سبب فأجاب
بالجواب الباهر الذى أخذه من كلام الرازى فى المطالب العالية فانه أجاب

به وهو فى المطالب العالية يخلط كلام الفلاسفة بكلام المتكلمين وهو فى مسئلة الحدوث والقدم جائز ، وهذا الجواب من أفسد الاجوبة فانه يقال ما الموجب لحدوث تلك التصورات دائما ثم ان النفس عندهم لابد أن تكون متصله بالجسم فيمتنع وجود نفس بدون جسم ، وأيضا فالذى علم بالاضطرار من دين الرسل ان كل ماسوى الله مخلوق محدث كان بعد ان لم يكن وأيضا فما تثبته الفلاسفة من الجواهر العقلية انما يوجد فى الذهن لافى الخارج وأما أكثر المتكلمين فقالوا انتفاء هذه معلوم بضرورة العقل وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع فبين أن ماتدعى الفلاسفة اثباته من الجواهر العقلية التى هى العقل والنفس والمادة والصورة فلاحقيقة لها فى الخارج وانما هى أمور معقولة فى الذهن يجردها العقل من الامور المعينة كما يجرد العقل الكليات المشتركة بين الاصناف كالحيوانية الكلية والانسانية الكلية والكليات انما تكون كليات فى الاذهان لافى الاعيان ، ومن هؤلاء من يظن أنها تكون فى الخارج كليات وان فى الخارج ماهيات كلية مقارنة للاعيان غير الموجوادت المعينة وكذلك منهم من يثبت كليات مجردة عن الاعيان يسمونها المثل الافلاطونية ، ومنهم من يثبت دهرا مجردا عن المتحرك والحركة ويثبت خلاء مجردا ليس هو متحيزا ولا قائما بمتحيز ويثبت هيولى مجردة عن جميع الصور ، والهيولى فى لغتهم بمعنى المحل يقال الفضة هيولى الخاتم والدرهم والخشب هيولى الكرسى أى هذا المحل الذى تصنع فيه هذه الصورة وهذه الصورة الصناعية عرض من الاعراض ويدعون ان الجسم هيولى محل الصورة الجسمية وغير نفس الجسم القائم بنفسه وهذا غلط وانما هذا يقدر فى النفس كما يقدر امتداد مجرد عن كل ممتد وعدد مجرد عن كل معدود ومقدار مجرد عن كل مقدر ، وهذه كلها أمور مقدرة

فى الاذهان لا وجود لها فى الاعيان وقد اعترف بذلك من عادته نصر الفلاسفة من أهل النظر كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع ، فالجواهر العقلية التى يثبتها هؤلاء الفلاسفة يعلم بصريح العقل بعد التصور التام انتفاؤها فى الخارج وأما الملائكة الذين أخبر الله عنهم فهذه لا يعرفها هؤلاء الفلاسفة أتباع ارسطو ولا يذكرونها بنفى ولا اثبات كما لا يعرفون النبوات ولا يتكلمون عليها بنفى ولا اثبات *

انما تكلم فى ذلك متأخروهم كابن سينا وأمثاله الذين أرادوا أن يجمعوا بين النبوات وبين الفلسفة فلبسوا ودلسوا وكذلك العلة الأولى التى يثبتونها لهذا العالم انما أثبتوا علة غائية يتحرك الفلك للتشبه بها وتحريكها للفلك من جنس تحريك الامام المقتدى به المؤتم المقتدى اذا كان يحب أن يتشبه بامامه ويقتدى بامامه ، ولفظ الاله فى لغتهم يراد به المتبوع الامام الذى يتشبه به فالفلك عندهم يتحرك للتشبه بالاله ولهذا جعلوا الفلسفة العليا والحكمة الأولى انما هى التشبه بالاله على قدر الطاقة ، وكلام ارسطو فى علم ما بعد الطبيعة فى مقالة اللام التى هى منتهى فلسفته وفى غيرها كله يدور على هذا وتارة يشبه تحريكه للفلك بتحريك المعشوق للعاشق لكن التحريك هنا قد يكون لمحبة العاشق ذات المعشوق أو لغرض يناله منه وحركة الفلك عندهم ليست كذلك بل يتحرك ليتشبه بالعلة الأولى فهو يحبها أى يحب التشبه بها لا يحب أن يعبدها ولا يحب شيئا يحصل منها ويشبه ذلك ارسطوا بحركة النواميس لاتباعها أى اتباع الناموس قائمون بما فى الناموس ويقتدون به والناموس عندهم هى السياسة الكلية للمدائن التى وضعها لهم ذوو الرأى والعقل لمصلحة دنياهم لئلا يتظالموا ولا تفسد دنياهم ومن عرف النبوات منهم يظن أن شرائع الانبياء من جنس نواميسهم وأن المقصود بها مصلحة

الدنيا بوضع قانون عدلى ولهذا أوجب ابن سينا وأمثاله النبوة وجعلوا النبوة لابد منها لأجل وضع هذا الناموس ، ولما كانت الحكمة العملية عندهم هى الخلقية والمنزلية والمدنية جعلوا ماجاءت به الرسل من العبادات والشرائع والأحكام هى جنس الحكمة الخلقية المنزلية والمدنية فان القوم لايعرفون الله بل هم أبعد عن معرفته من كفار اليهود والنصارى بكثير وارسطو المعلم الاول من أجهل الناس برب العالمين الى الغاية لكن لهم معرفة جيدة بالامور الطبيعية وهذا بحر علمهم وله تفرغوا وفيه ضيعوا زمانهم ، وأما معرفة الله تعالى فحظهم منها مبخوس جدا وأما ملائكته وكتبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة ولم يتكلموا فيه لابنفى ولا اثبات وانما يتكلم فى ذلك متأخروهم الداخلون فى الملل وأما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركا وسحرا يعبدون الكواكب والاصنام ولهذا عظمت عناياتهم بعلم الهيئة والكواكب لاجل عبادتها وكانوا يبنون لها الهياكل وكان آخر ملوكهم بطليموس صاحب المجسطى لما دخلت الروم فى النصرانيه فجاء دين المسيح صلوات الله عليه وسلامه فابطل ماكانوا عليه من الشرك *

ولهذا بدل من بدل دين المسيح فوضع دينا مركبا من دين الموحدين ودين المشركين فان أولئك كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب ويصلون لها ويسجدون فجاء قسطنطين ملك النصارى ومن اتبعه فابتدعوا الصلاة الى الشرق وجعلوا السجود الى الشمس بدلا عن السجود لها وكان أولئك يعبدون الاصنام المجسدة التى لها ظل فجاءت النصارى وصورت تماثيل القداديس فى الكنائس وجعلوا الصور المرقومة فى الحيطان والسقوف بدل الصور المجسدة القائمة بانفسها التى لها ظل وأرسطو كان وزير الاسكندر ابن فيلبس المقدونى نسبة الى مقدونية وهى جزيرة هؤلاء الفلاسفة اليونانيين

الذين يسمون المشائين وهى اليوم خراب أوغمرها الماء وهوالذى يؤرخ له النصارى واليهود التاريخ الرومى وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة فيظن من يعظم هؤلاء الفلاسفة انه كان وزير ذى القرنين المذكور فى القرآن ليعظم بذلك قدره وهذا جهل فان ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جدا وذو القرنين بنى سد يأجوج ومأجوج وهذا المقدونى ذهب الى بلاد فارس لم يصل الى بلا الصين فضلا عن السد والملائكة التى أخبر الله ورسوله بها لايحصى عددهم إلا الله ليسوا عشرة ولاتسعة وهم عباد الله أحياء ناطقون ينزلون الى الأرض ويصعدون الى السماء ولايفعلون الاباذن ربهم كما أخبر الله عنهم بقوله : (وقالوا اتخذالرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وأمثال هذه النصوص ، وهؤلاء يدعون أن العقول قديمة أزلية وأن العقل الفعال هورب كل ماتحت هذا الفلك والعقل الأول هورب السموات والارض ومابينهما ، والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بنى عبيد كأصحاب رسائل اخوان الصفا وغيرهم وكملاحدة المتصوفة مثل ابن عربى . وابن سبعين وغيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع اول ماخلق الله العقل، وفى كلام أبى حامد الغزالى فى الكتب المضنون بها على غير أهلها وغير ذلك من معانى هؤلاء قطعة كبيرة ويعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك والملكوت والجبروت ومراده بذلك الجسم والنفس والعقل فيأخذ هؤلاء وتلك العبارات الاسلامية ويودعونها معانى هؤلاء وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين فاذا سمعوها قبلوها ثم اذا عرفوا المعانى التى قصدها

هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الاسلام وأن هذه معانى هؤلاء الملاحدة ليست هى المعانى التى عناها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم واخوانه المرسلون مثل موسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين *

ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الالتباس وعدم المعرفة بحقيقة ماجاء به الرسول ومايقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم والعبادة والتصوف ومن ليس له غرض فى مخالفة محمد صلى الله عليه وسلم بل يحب اتباعه مطلقا ولو عرف أن هذا مخالف لما جاء به لم يقبله لكن لعدم كمال علمه بمعانى ماأخبر به الرسول ومقاصد هؤلاء يقبل هذا لاسيما اذا كان المتكلم به ممن له نصيب وافر فى العلم والكلام والتصوف والزهد والفقه والعبادة *

ورأى الطالب أن هذا مرتبته فوق مرتبة الفقهاء الذين انما يعرفون الشرع الظاهر وفوق مرتبة المحدث الذى غايته النقل لألفاظ لايعلم معانيها وكذلك المقرى والمفسر، ورأى من يعظمه من أهل الكلام اماموافق لهم أوخائف منهم، ورأى بحوث المتكلمين معهم فى مواضع كثيرة لم يأتوا بتحقيق تبيين فساد قولهم بل تارة يوافقونهم على أصول لهم تكون فاسدة وتارة يخالفونهم فى أمر قالته الفلاسفة ويكون حقا مثل مايرى كثير من المتكلمين يخالفهم فى أمور طبيعية ورياضية ظانا أنه ينصر الشرع ويكون الشرع موافقا لما علم بالعقل مثل استدارة الافلاك فانه لم يعلم بين السلف خلاف فى أنها مستديرة والآثار بذلك معروفة والكتاب والسنة قد دلا على ذلك وكذلك استحالة الاجسام بعضها الى بعض هو مما اتفق عليه الفقهاء كما قال هؤلاء الى أمور أخر لكن كثير من المتكلمين أو أكثرهم لاخبرة لهم بما دل عليه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم باحسان بل ينصر مقالات يظنها دين المسلمين بل اجماع المسلمين ولا يكون قد قالها أحد من السلف

بل الثابت عن السلف مخالف لها فلما وقع بين المتكلمين تقصير وجهل كثير بتحقيق العلوم الشرعية وهم فى العقليات تارة يوافقون الفلاسفة على باطلهم وتارة يخالفونهم فى حقهم صارت المناظرات بينهم دولا وان كان المتكلمون أصح مطلقا فى العقليات الالهية والكلية كما أنهم أقرب الى الشرعيات من الفلاسفة فان الفلاسفة كلامهم فى الالهيات والكليات العقلية كلام قاصر جدا وفيه تخليط كثير وانما يتكلمون جيدا فى الامور الحسية الطبيعية وفى كلياتها فكلامهم فيها فى الغالب جيد ، وأما الغيب الذى تخبر به الأنبياء والكليات العقلية التى تعم الموجودات كلها وتقسيم الموجودات قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة فان هذا لا يكون الا ممن أحاط بانواع الموجودات وهم لا يعرفون الا الحساب وبعض لوازمها وهذا معرفة بقليل الموجودات جدا فان مالا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدرا وصفة مما يشهدونه بكثير *

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة اذا سمعوا اخبار الانبياء بالملائكة والعرش والكرسى والجنة والنار وهم يظنون أن لا موجود الا ما علموه هم والفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الانبياء على ما عرفوه وان كان هذا الادليل عليه وليس لهم بهذا النفى علم فان عدم العلم ليس علما بالعدم لكن نفيهم هذا كنفى الطبيب للجن لانه ليس فى صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن والافليس فى علم الطب ما ينفى وجود الجن، وهكذا تجد من عرف نوعا من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافيا لما لا يعلمه وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به قال تعالى : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وهذا لان الغالب على الآدميين صحه الحس والعقل فاذا أثبتوا شيئا وصدقوا به كان حقا ولهذا كان التواتر مقبولا من جميع أجناس بنى آدم

لانهم يخبرون عما شاهدوه وسمعوه ، وهذا أمر لا يشترك الخلق العظيم فى الغلط فيه ولا فى تعمد الكذب فيه فاذا علم أنهم لم يتواطؤا عليه ولم يأخذه بعضهم عن بعض كما يؤخذ المذهب والاراء التى يتلقاها المتأخر عن المتقدم وقد علم أن هذا مما لا يغلط فيه عادة علم قطعا صدقهم فان المخبر اما أن يتعمد الكذب واما أن يغلط وكلاهما مأمون فى المتواترات بخلاف ما نفوه وكذبوا به فان غالبهم او كثيراً منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ٭

فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ما عرفه هؤلاء المتفلسفة اذا سمعوا ما أخبرت به الانبياء من العرش والكرسى قالوا : العرش هو الفلك التاسع والكرسى هو الثامن وقد تكلمنا على ذلك فى مسئلة الاحاطة وبينا جهل من قال هذا عقلا وشرعا ، واذا سمعهم يذكرون الملائكة ظن انهم العقول والنفوس التى يثبتها المتفلسفة والقوى التى فى الاجسام وكذلك الجن والشاطين يظن أنها اعراض قائمة بالنفوس حيث كان هذا مبلغه من العلم وكذلك يظن ماذكره ابن سينا وأمثاله من أن الغرائب فى هذا العالم سببها قوة فلكية أو طبيعية أو نفسانية ويجعل معجزات الانبياء من باب القوى النفسانية وهى من جنس السحر لكن الساحر قصده الشر والنبى قصده الخير وهذا كله من الجهل بالامور الكلية المحيطة بالموجودات وأنواعها ، ومن الجهل بما جاء به الرسول فلا يعرفون من العلوم الكلية ولا العلوم الالهية الا ما يعرفه الفلاسفة المتقدمون وزيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام أو عن أهل الملة ٭

فلهذا صار كلام المتأخرين كابن سينا وأمثاله فى الالهيات والكليات أجود من كلام سلفه ولهذا قربت فلسفة اليونان الى أهل الالحاد والمبتدعة من اهل الملل لما فيها من شوب الملة ولهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة فاخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل والنفس وعن المجوس

النور والظلمة وسموهم السابق والتالى ، وكذلك الملاحدة المنتسبون الى التصوف والتأله كابن سبعين وأمثاله سلكوا مسلكا جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة ، وقد بسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء فى غير هذا الموضع *

وانما ذكروا هنا لان أهل الكلام المحدث صاروا لعدم علمهم بما علمه السلف وأئمة السنة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة ولما وقعوا فيه من الكلاميات الباطلة يدخل بسببهم هؤلاء الفلاسفة فى الاسلام أمورا باطلة ويحصل بهم من الضلال والغى مالا يتسع هذا الموضع لذكره *

ولما أحدثت الجهمية محنتهم ودعوا الناس اليها وضرب أحمد بن حنبل فى سنة عشرين ومائتين كان مبدأ حدوث القراامطة الملاحدة الباطنية من ذلك الزمان فصارت البدع باب الالحاد كما أن المعاصى بريد الكفر ولبسط هذا موضع آخر *

والمقصود هنا الكلام على لفظ التحيز والجهة وهؤلاء المتكلمون المتفلسفة صار بينهم نزاع فى الملائكة هل هى متحيزة أم لا ؟ فمن مال الى الفلسفة ورأى أن الملائكة هى العقول والنفوس التى يثبتها الفلاسفة وان تلك ليست متحيزة قال ان الملائكة ليست متحيزة لاسيما وطائفة من الفلاسفة لم تجعل عددها عشرة عقول وتسعة نفوس كما هو المشهور عن المشائين بل لادليل على نفى الزيادة ورأى النبوات قد أخبرت بكثرة الملائكة فأراد أن يثبت كثرتهم بطريقة فلسفية كما فعل ذلك أبو البركات صاحب المعتبر ، والرازى فى المطالب العالية وغيرهما ، وأما المتكلمون فانهم يقولون ان كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو اما متحيز واما قائم بمتحيز وكثير منهم يقول كل موجود اما متحيز واما قائم بمتحيز ويقول لايعقل موجود الا كذلك كما قال طوائف من أهل الكلام والنظر ثم

الفلاسفة كابن سينا وأتباعه والشهرستانى والرازى وغيرهم لما أرادوا اثبات موجود ليس كذلك كان أكبر عمدتهم اثبات الكليات كالانسانية المشتركة والحيوانية المشتركة واذا كانت هذه لاتكون كليات الافى الذهن فلم ينازعهم الناس فى ذلك وانما نازعوهم فى اثبات موجود خارج الذهن قائم بنفسه لايمكن الاحساس به بحال بل لايكون الامعقولا وقالوا لهم : المعقول ماكان فى العقل وأما ماكان موجودا قائما بنفسه فلا بد أن يمكن الاحساس به وإن لم نحس نحن به فى الدنيا كما لانحس بالجن والملائكة وغير ذلك فلا بد أن يحس به غيرنا كالملائكة والجن وأن يحس به بعد الموت أوفى الدار الآخرة أو يحس به بعض الناس دون بعض فى الدنيا كالأنبياء الذين رأوا الملائكة وسمعوا كلامهم ، وهذه الطريقة ـ وهو أن كل قائم بنفسه يمكن رؤيته ـ هى التى سلكها أئمة النظار كابن كلاب وغيره وسلكها ابن الزاغونى وغيره وأما من قال ان كل موجود يجوز رؤيته أو يجوز أن يحس بسائر الحواس الخمس كما يقوله الأشعرى وموافقوه كالقاضى أبى يعلى . وأبى المعالى وغيرهما فهذه الطريقة مردودة عند جماهير العقلاء بل يقولون فسادها معلوم بالضرورة بعد التصور التام كما بسط فى موضعه ، وكذلك نزاعهم فى روح الانسان التى تفارقه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون هى عين قائمة بنفسها ليست عرضا من اعراض البدن كالحياة وغيرها ولاجزأ من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه فان كثيرا من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن أوجزء من أجزاء البدن لكن هذا مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف والخلف ولقول جماهير العقلاء من جميع الامم ومخالف للادلة .

وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام قال القاضى أبو بكر أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الاعراض وبهذا نقول

اذا لم يعن بالروح النفس فانه قال الروح الكائن فى الجسد ضربان أحدهما الحياة القائمة به والآخر النفس والنفس ريح ينبث به والمراد بالنفس ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام وهذا قول الاسفرائينى وغيره ، وقال ابن فورك هو ما يجرى فى تجاويف الأعضاء. وأبو المعالى خالف هؤلاء وأحسن فى مخالفتهم فقال ان الروح أجسام لطيفة مشابكة للاجسام المحسوسة أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتها لها فاذا فارقتها تعقب الموت الحياة في استمرار العادة ومذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ان الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن وتنعم وتعذب ليست هى البدن ولا جزءا من أجزائه كالنفس المذكور *

ولما كان الامام أحمد ممن نص على ذلك كما نص عليه غيره من الأئمة لم يختلف أصحابه فى ذلك لكن طائفة منهم كالقاضى أبى يعلى زعموا أنها جسم وأنها الهواء المتردد فى مخاريق البدن موافقة لأحد المعنيين الذين ذكرهما الباقلانى ، وهذه الأقوال لما كانت من أضعف الأقوال تسلط بها عليهم خلق كثير ، والمقصود هنا أن الذين قالوا انها عين قائمة بنفسها غير البدن وأجزائه وأعراضه تنازعوا هل هى جسم متحيز على قولين كتنازعهم فى الملائكة ؟ *

فالمتكلمون منهم يقولون جسم والمتفلسفة يقولون جوهر عقلى ليس بجسم وقد أشرنا فيما تقدم الى أن ما تسميه المتفلسفة جواهر عقلية لا توجد الا فى الذهن ، وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات هو مأخوذ من نفس الانسان فانها لما كانت تفارق بدنه بالموت وتتجرد عنه سموها مفارقة مجردة ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها مفارقات ومجردات لمفارقتها المادة التى هى عندهم الجسم وهذه المفارقات عندهم ما لا يكون جسما ولا قائما

بجسم لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير والعقل لاتعلق له بالاجسام أصلا ، ولاريب أن جماهير العقلاء على اثبات الفرق بين البدن والروح التى تفارق والجمهور يسمون ذلك روحا وهذا جسما لكن لفظ الجسم فى اللغة ليس هو الجسم فى اصطلاح المتكلمين بل الجسم هو الجسد كما تقدم وهو الجسم الغليظ أوغلظه والروح ليست مثل البدن فى الغلظ والكثافة ولذلك لاتسمى جسما فمن جعل الملائكة والارواح ونحو ذلك جسما بالمعنى اللغوى فقد أصاب فى ذلك ورب العالمين أولى أن لايكون جسما فانه من المشهور فى اللغة الفرق بين الارواح والاجسام (وأما أهل الاصطلاح) من المتكلمة والمتفلسفة فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك وهو ماأمكنت الاشارة الحسية اليه وماقيل انه هنا وهناك وما قبل الابعاد الثلاثة ونحو ذلك وكذلك المتحيز فى اصطلاح هؤلاء هو الجسم ويدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته وقد تقدم معنى الجسم فى اللغة ، وأما المتحيز فقد قال تعالى (ومن يولهم يومئذ دبره الامتحرفا لقتال أومتحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله) .

وقال الجوهرى الحوز الجمع وكل من ضم الى نفسه شيئا فقد حازه حوزا وحيازة واحتازه أيضا والحوز والحيز السوق اللين وقد حاز الابل يحوزها ويحيزها وحوز الابل ساقها الى الماء ، وقال الاصمعى اذا كانت الابل بعيدة المرعى عن الماء فأول ليلة توجهها الى الماء ليلة الحوز وتحوزت الحية وتحيزت تلوت يقال مالك تتحوز تحوز الحية وتتحيز تحيز الحية ، قال سيبويه هو من تفعل من حزت الشىء قال القطامى :

تحيز منى خشية أن أضيفها ... كما انحازت الافعى مخافة ضارب

يقول تتنحى عنى هذه العجوز وتتأخر خشية أن أنزل عليها ضيفا والحيز ماانضم الى الدار من مرافقها وكل ناحية حيز وأصله من الواو والحيز تخفيف

الحيز مثل هين وهين ولين ولين والجمع أحياز ، والحوزة الناحية وانحاز عنه انعدل وانحاز القوم تركوا مركزهم الى آخر يقال للاولياء انحازوا عن العدو وحاصوا والاعداء انهزموا وولوا مدبرين وتحاوز الفريقان فى الحرب انحاز كل فريق عن الآخر * فهذا المذكور عن أهل اللغة فى هذا اللفظ ومادته تقضى ان التحيز والانحياز والتحوز ونحو ذلك تضمن عدولا من محل الى محل وهذا أخص من كونه يحوزه أمر موجود فهم يراعون فى معنى الحوز ذهابه من جهة الى جهة ، ولهذا يقولون حزت المال وحزت الابل وذلك يتضمن نقله من جهة الى جهة فالشىء المستقر فى موضعه كالجبل والشمس والقمر لايسمونه متحيزا وأعم من هذا أن يراد بالمتحيز مايحيط به حيز موجود فيسمى كل ماأحاط به غيره انه متحيز ، وعلى هذا فما بين السماء والارض متحيز بل مافى العالم متحيز الاسطح العالم الذى لايحيط به شىء فان ذلك ليس بمتحيز وكذلك العالم جملة ليس بمتحيز بهذا الاعتبار فانه ليس فى عالم آخر أحاط به ، والمتكلمون يريدون بالمتحيز ماهو أعم من هذا والحيز عندهم أعم من المكان فالعالم كله فى حيز وليس هو فى مكان والمتحيز عندهم لايعتبر فيه انه يحوزه غيره ولايكون له حيز وجودى بل كل ماأشير اليه وامتاز منه شىء عن شىء فهو متحيز عندهم ﴿ثم هم مختلفون﴾ بعد هذا فى المتحيز هل هو مركب من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أو هو غير مركب لامن هذا ولا من هذا كما تقدم نزاعهم فى الجسم فالجسم عندهم متحيز ولايخرج عنه الا الجوهر الفرد عند من أثبته وهؤلاء يعتقد كثير منهم أو أكثرهم أن كل متحيز فهو مركب يقبل الانقسام الى جزء لايتجزى بل يظن بعضهم أن هذا اجماع المسلمين وأكثرهم يقولون المتحيزات متماثلة فى الحد والحقيقة ومن كان معنى المتحيز عنده هذا فعليه أن ينزه الله تعالى

ان يكون متحيزا بهذا الاعتبار ، واذا قال الملائكة متحيزون بهذا الاعتبار أو الروح متحيزة بهذا الاعتبار نازعه فى ذلك جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم بل لا يعرف أحد من سلف الأمة وأئمتها يقول ان الملائكة متحيزة بهذا الاعتبار ولا قالوا لفظا يدل على هذا المعنى ، وكذلك روح بنى آدم التى تفارقه بالموت لم يقل أحد من السلف أنها متحيزة بهذا الاعتبار ولا قال فيها لفظا يدل على هذا المعنى فاذا كان اثبات هذا التحيز للملائكة والروح بدعة في الشرع وباطلا فى الشرع فلأن يكون ذلك بدعة وباطلا فى رب العالمين بطريق الأولى والأحرى * ومن هنا يتبين ان عامة مايقوله المتفلسفة وهؤلاء المتكلمة فى نفوس بنى آدم وفى الملائكة باطلة فكيف بما يقولونه فى رب العالمين ، ولهذا توجد الكتب المصنفة التى يذكر فيها مقالات هؤلاء وهؤلاء فى هذه المسائل الكبار فى رب العالمين وفى ملائكته وفى أرواح بنى آدم وفى المعاد وفى النبوات ليس فيها قول يطابق العقل والشرع ولا يعرفون ماقاله السلف والأئمة فى هذا الباب ولا مادل عليه الكتاب والسنة *

فلهذا يغلب على فضلائهم الحيرة فانهم اذا أنهوا النظر لم يصلوا الى علم لأن ما نظروا فيه من كلام الطائفتين مشتمل على باطل من الجانبين ولهذا قال أبو عبد الله الرازى فى آخر عمره : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الاثبات (اليه يصعد الكلم الطيب) (والرحمن على العرش استوى) واقرأ فى النفى (ليس كمثله شىء) (ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى ، وأما من اعتقد أن المتحيز هو ما باين غيره فانحاز عنه وليس من شرطه أن يكون مركبا من الاجزاء الفردة ولا أنه يقبل التفريق والتقسيم فاذا قال ان الرب متحيز بهذا المعنى أى أنه بائن عن مخلوقاته

فقد أراد معنى صحيحا لكن اطلاق هذه العبارة بدعة وفيها تلبيس فان هذا الذى أراده ليس معنى المتحيز فى اللغة وهو اصطلاح له ولطائفته ، وفى المعنى المصطلح نزاع بين العقلاء فصار يحتمل معنى فاسدا يجب تنزيه الرب عنه وليس للانسان أن يطلق لفظا يدل عند غيره على معنى فاسد ويفهم ذلك الغير ذلك المعنى الفاسد من غير بيان مراده بل هؤلاء المتكلمون الذين أرادوا بالمتحيز ما كان مؤلفا من أجزاء لاتقبل القسمة وهو ما كان قابلا للقسمة اذا قالوا ان كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو اما متحيز واما قائم بمتحيز كان جماهير العقلاء يخالفونهم فى هذا التقسيم ولم يكن أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين ولا سائر أئمة المسلمين موافقا لهم على هذا التقسيم فكيف اذا قال من قال منهم كل موجود فهو اما متحيز واما قائم بمتحيز وأراد بالمتحيز ما أراده هؤلاء فان قوله حينئذ يكون أبعد عن الشرع والعقل من قول أولئك ولهذا طالبهم متأخروهم بالدليل على هذا الحصر وليس خطأ هؤلاء من جهة ما أثبته المتفلسفة من الجواهر العقلية فان تلك قد علم بطلانها بصريح العقل أيضا .

وما يقوله هؤلاء المتفلسفة فى النفس الناطقه من أنها لا يشار اليها ولا توصف بحركة ولا سكون ولا صعود ولا نزول وليس داخل العالم ولا خارجه وهو أيضا كلام أبطل من كلام أولئك المتكلمين عند جماهير العقلاء ولا سيما من يقول منهم كابن سينا وأمثاله انها لا تعرف شيئا من الأمور الجزئية وانما تعرف الامور الكلية فان هذا مكابرة ظاهرة فانها تعرف بدنها وتعرف كل ماتراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه الى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها فكيف يقال انها لاتعرف الأمور المعينة وانما تعرف أمورا كلية وكذلك قولهم

ان تعلقها بالبدن ليس الا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لمملكته من أفسد الكلام فان الملك يدبر أمر مملكته فيأمر وينهى ولكن لايصرفهم هو بمشيئته وقدرته ان لم يتحركوا هم بارادتهم وقدرتهم والملك لايلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتألمه وليس كذلك الروح والبدن بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف مالا يعرف له نظير يقاس به ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلا لدخول شيء من الأجسام المشهودة فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات فى الأوعية فان هذه انما تلاقى السطح الداخل فى الأوعية لابطونها ولاظهورها وانما يلاقى الاوعية منها أطرافها دون أوساطها وليس كذلك الروح والبدن بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب فى بدن الآكل فان ذلك له مجار معروفة وهو مستحيل الى غير ذلك من صفاته ولاجريانها فى البدن كجريان الدم فان الدم يكون فى بعض البدن دون بعض ففى الجملة كل مايذكر من النظائر لايكون كل شيء منه متعلقا بالآخر بخلاف الروح والبدن لكن هى مع هذا فى البدن قد ولجت فيه وتخرج منه وقت الموت وتسل منه شيئا فشيئا فتخرج من البدن شيئا فشيئا لاتفارقه كما يفارق الملك مدينته التى يدبرها والناس لما لم يشهدوا لها نظيرا عسر عليهم التعبير عن حقيقتها وهذا تنبيه لهم على رب العالمين حيث لم يعرفوا حقيقته ولاتصوروا كيف هو سبحانه وتعالى وان مايضاف اليه من صفاته هو على مايليق به جلّ جلاله فان الروح التى هى بعض عبيده توصف بانها تعرج اذا نام الانسان وتسجد تحت العرش وهى مع هذا فى بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية والانسان فى نومه يحس بتصرفات روحه تصرفات توثر فى بدنه فهذا الصعود الذى توصف به الروح

لا يماثل صعود المشهودات فانها اذا صعدت الى مكان فارقت الأول بالكلية وحركتها الى العلو حركة انتقال من مكان الى مكان وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك فالرب سبحانه اذا وصفه رسوله بأنه ينزل الى سماء الدنيا كل ليلة وانه يدنو عشية عرفة الى الحجاج وانه كلم موسى في الوادى الايمن في البقعة المباركة من الشجرة وانه استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الافعال من جنس مانشاهده من نزول هذه الاعيان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر *

فان نزول الروح وصعودها لا يستلزم ذلك فكيف برب العالمين وكذلك الملائكة لهم صعود ونزول من هذا الجنس فلا يجوز نفى ما أثبته الله ورسوله من الاسماء والصفات ولا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات لاسيما مالا نشاهده من المخلوقات فان ماثبت لما لانشاهده من المخلوقات من الاسماء والصفات ليس مماثلا لما نشاهده منها فكيف برب العالمين الذى هو أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق لمخلوق وكل مخلوق فهو أشبه بالمخلوق الذى لا يماثله من الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وهذا الذى نبهنا عليه مما يظهر به ان مايذكره صاحب المحصل وأمثاله من تقسيم الموجودات على رأى المتفلسفة والمتكلمة كله تقسيم غير حاصر وكل من الفريقين مقصر عن سلفه، اما المتكلمون فلم يسلكوا من التقسيم المسلك الذى دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الأمة وكذلك هؤلاء المتفلسفة اتباع ارسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الاساطين المتقدمين فان أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم وكانوا يقولون ان فوق هذا العالم عالما آخر يصفونه ببعض ماوصف النبى صلى الله عليه وسلم الجنة وكانوا يثبتون معاد

الابدان كما يوجد هذا فى كلام سقراط وتاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة وقد ذكروا أن أول من قال منهم بقدم العالم ارسطو وهذه الالفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ المركب والمؤلف والمنقسم ونحو ذلك قد صار كل من أراد نفى شيء مما اثبته الله لنفسه من الاسماء والصفات عبر بها عن مقصوده فيتوهم من لايعرف مراده ان المراد تنزيه الرب الذى ورد به القرآن وهو اثبات أحديته وصمديته ويكون قد أدخل في تلك الالفاظ مارآه هو منفيا وعبر عنه بتلك العبارة وضعا له واصطلاحا اصطلح عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب وليس ذلك من لغه العرب التى نزل بها القرآن ولا من لغة أحد من الامم ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الاحد والصمد والواحد ونحو ذلك من الاسماء الموجودة فى الكتاب والسنة ويجعل مانفاه من المعانى التى أثبتها الله ورسوله من تمام التوحيد واسم التوحيد اسم معظم جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فاذا جعل تلك المعانى التى نفاها من التوحيد ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول انه يقول بالتوحيد الذى جاءت به الرسل ويسمى طائفته الموحدين كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم على نفى شيء من الصفات ويسمون ذلك توحيدا ويسمون علمهم علم التوحيد كما تسمى المعتزلة ومن وافقهم على نفى القدر عدلا ويسمون أنفسهم العدلية واهل العدل ومثل هذه البدع كثير جدا يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراد الله ورسوله بتلك الألفاظ ولايكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداء عن الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بل عن شبه حصلت لهم وأئمة لهم وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجة لهم وعمدة لهم ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول لامخالفون له وكثير منهم لايعرفون ان ماذكروه مخالف للرسول بل

يظن ان هذا المعنى الذى أراده هو الذى أراده الرسول ﷺ وأصحابه
فلهذا يحتاج المسلمون الى شيئين، أحدهما معرفة ما أراد الله ورسوله بألفاظ
الكتاب والسنة بان يعرفوا لغة القرآن التى بها نزل وما قاله الصحابة والتابعون
لهم باحسان وسائر علماء المسلمين فى معانى تلك الالفاظ فان الرسول لما
خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الالفاظ وكانت معرفة الصحابة
لمعانى القرآن أكمل من حفظهم لحروفه وقد بلغوا تلك المعانى الى التابعين
أعظم مما بلغوا حروفه فان المعانى العامة التى يحتاج اليها عموم المسلمين مثل
معنى التوحيد ومعنى الواحد والاحد والايمان والاسلام ونحو ذلك كان
جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله من معرفتها ولا يحفظ القرآن
كله الا القليل منهم وان كان شىء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر والقرآن
مملوء من ذكر وصف الله بانه أحد وواحد ومن ذكر أن إلهكم واحد ومن
ذكر أنه لا اله الا الله ونحو ذلك *

فلابد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك فان معرفته أصل الدين
وهو أول ما دعى الرسول اليه الخلق وهو أول ما يقاتلهم عليه وهو أول
ما أمر رسله ان تأمر الناس به وقد تواتر عنه انه أول ما دعى الخلق الى أن يقولوا
لا اله الا الله ولما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا
لا اله الا الله وأنى رسول الله، وفى الصحيحين انه لما بعث معاذا الى اليمن قال
له انك تأتى قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا اله
الا الله وأنى رسول الله فان هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم ان الله قد افترض
عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوا لك بذلك
فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب
فقال لمعاذ ليكن أول ما تدعوهم اليه التوحيد ومع هذا كانوا من أهل الكتاب

كان يهودا فان اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن وهذا الذى أمر به معاذا
موافق لقوله تعالى (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجد
تموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وفى الآية الأخرى (فان تابوا وأقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين) وهذا مطابق لقوله تعالى (وما أمروا الا
ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك
دين القيمة)وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال الايمان بضع وستون أو بضع
وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق
والحياء شعبة من الايمان (فالمقصود) ان معرفة ماجاء به الرسول وما أراده
بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والايمان والسعادة والنجاة ثم
معرفة ماقال الناس فى هذا الباب لينظر المعانى الموافقة للرسول والمعانى
المخالفة لها والالفاظ نوعان نوع يوجد فى كلام الله ورسوله ونوع لايوجد
فى كلام الله ورسوله فيعرف معنى الاول ويجعل ذلك المعنى هو الاصل
ويعرف مايعنيه الناس بالثانى ويرد الى الاول هذا طريق أهل الهدى والسنة
وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس يجعلون الالفاظ التى أحدثوها ومعانيها
هى الاصل ويجعلون ماقاله الله ورسوله تبعا لهم ويردونها بالتأويل والتحريف
الى معانيهم ويقولون نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة يعنون أنهم يعتقدون
معنى بعقلهم ورأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات
والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه ولهذا قال الامام أحمد
أكثر مايخطىء الناس من جهة التأويل والقياس وقال يجتنب المتكلم فى
الفقه هذين الاصلين المجمل والقياس وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل
البدع الكبار والصغار فهى طريق الجهمية والمعتزلة ومن دخل فى التأويل

من الفلاسفة والباطنية الملاحدة وأما حذاق الفلاسفة فيقولون ان المراد بخطاب الرسول انما هو أن يخيل الى الجمهور ماينتفعون به من مصالح دنياهم وان لم يكن ذلك مطابقا للحق قالوا وليس مقصود الرسول بيان الحق وتعريفه بل مقصوده ان يخيل اليهم مايعتقدون ويجعلون خاصية النبوة قوة التخييل فهم يقولون ان الرسول لم يبين ولم يفهم بل ولم يقصد ذلك وهم متنازعون هل كان يعلم الامور على ماهى عليه على قولين؟ منهم من قال كان يعلمها لكن ماكان يمكنه بيانها وهؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف ، ومنهم من يقول بل ماكان يعرفها أوما كان حاذقا فى معرفتها وانما كان يعرف الامور العلمية وهولاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبى لان الامور العملية أكمل من العلمية فهؤلاء يجعلون خبر الله وخبر الرسول انما فيه التخييل وأولئك يقولون لم يقصد به التخييل ولكن قصد معنى يعرف بالتأويل ، وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على انه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق فى باب التوحيد فخاطب الجمهور بما خيل لهم كما يقولون انه لوقال ان ربكم ليس بداخل العالم ولاخارجه ولا يشار اليه ولاهو فوق العالم ولاكذاولا كذا لنفرت قلوبهم عنه ، وقالوا هذا لايعرف قالوا فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم رب يعبدونه وان كان يعرف ان التجسيم باطل وهذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا ان مذهب النفاة هو الصحيح واحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول من الاثبات كما يوجد فى كلام غير واحد وتارة يقولون انما عدل الرسول عن بيان الحق ليجتهدوا فى معرفة الحق من غير تعريفه ويجتهدوا فى تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك وهو اجتهادهم فى عقلياتهم وتأويلاتهم ولا يقولون انه قصد به افهام العامة الباطل كما يقول أولئك المتفلسفة وهذا قول أكثر

المتكلمين النفاة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم حتى ابن عقيل وأمثاله . وأبو حامد . وابن رشد الحفيد وأمثالهما يوجد فى كلامهم المعنى الاول وأبو حامد انما ذم التأويل فى آخر عمره وصنف الجام العوام عن علم الكلام محافظة على هذا الاصل لانه رأى مصلحة الجمهور لاتقوم الا بابقاء الظواهر على ماهى عليه وان كان هو يرى ماذكره فى كتبه المضنون بها ان النفى هو الثابت فى نفس الامر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان والهدى كما وصف الله كتابه ونبيه حيث قال (هدى للمتقين) وقال (هذا بيان للناس) وقال (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال (وما على الرسول الا البلاغ المبين) وقال (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور) وأمثال ذلك ، وقال النبى ﷺ « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدى الا هالك » وقال تعالى (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) وقال (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وقال (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) وثم طائفة ثالثة كثرت فى المتأخرين المنتسبين الى السنة يقولون مايتضمن ان الرسول لم يكن يعرف معانى ما أنزل عليه من القرآن كآيات الصفات بل لازم قولهم أيضا أنه كان يتكلم باحاديث الصفات ولايعرف معناها .

وهؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين أن الوقف التام عند قوله (ومايعلم تأويله الا الله) وافقوا السلف

وأحسنوا فى هذه الموافقة لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو تأويل معنى اللفظ وتفسيره أو هو التأويل الاصطلاحى الذى يجرى فى كلام كثير من متأخرى أهل الفقه والأصول وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به فهم قد سمعوا كلام هؤلاء وهؤلاء. فصار لفظ التأويل عندهم هذا معناه ، ولما سمعوا قول الله تعالى (وما يعلم تأويله الا الله) ظنوا أن لفظ التأويل فى القرآن معناه هو لفظ التأويل فى كلام هولاء. فلزم من ذلك انه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص الا الله لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما بل كل من الرسولين على قولهم يتلو أشرف مافى القرآن من الأخبار عن الله باسمائه وصفاته وهو لا يعرف معنى ذلك أصلا ، ثم كثير منهم يذمون ويبطلون تأويلات أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهما وهذا جيد لكن قد يقولون تجرى على ظواهرها وما يعلم تأويلها الا الله ، فان عنوا بظواهرها مايظهر منها من المعانى كان هذا مناقضا لقولهم ان لها تأويلا يخالف ظاهرها لا يعلمه الا الله وان عنوا بظواهرها بجرد الالفاظ كان معنى كلامهم انه يتكلم بهذه الالفاظ ولها باطن يخالف ماظهر منها وهو التاويل وذلك لا يعلمه الا الله .

وفيهم من يريد باجرائها على ظواهرها هذا المعنى وفيهم من يريد الاول وعامتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث وقد يريدون به الثانى فانه أحيانا قد يفسر النص بما يوافق ظاهره ويبين من هذا ليس من التأويل الثالث فيأتون ذلك ويكرهون تدبر النصوص والنظر فى معانيها أعنى النصوص التى يقولون انه لم يعلم تأويلها الا الله ثم هم فى هذه النصوص بحسب عقائدهم فان كانوا من القدرية قالوا النصوص المثبتة لكون العبد فاعلا محكمة والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريد الكل ماوقع نصوص

متشابهة لايعلم تأويلها الا الله اذا كانوا ممن لايتأولها فان عامة الطوائف منهم من يتأول مايخالف قوله ومنهم من لايتأوله وان كانوا من الصفاتية المثبتين من الصفات التى زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخرى الكلابية كأبى المعالى فى آخر عمره وابن عقيل فى كثير من كلامه قالوا عن النصوص المتضمنة للصفات التى لاتعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لايعلم تأويلها الا الله وكثير منهم يكون له قولان وحالان تارة يتأول ويوجب التأويل أو يجوزه وتارة يحرمه كما يوجد لابى المعالى ٭

ولابن عقيل ولأمثالهما من اختلاف الاقوال ومن أثبت العلو بالعقل وجعله من الصفات العقلية كأبى محمد بن كلاب . وأبى الحسن بن الزاغونى ومن وافقه وكالقاضى أبى يعلى فى آخر قوليه . وأبى محمد أثبتوا العلو وجعلوا الاستواء من الصفات الخبرية التى يقولون لايعلم تاويلها الا الله وان كانوا ممن يرى الفوقية والعلو أيضا من الصفات الخبرية كقول القاضى أبى بكر وأكثر الاشعرية . وقول القاضى أبى يعلى فى أول قوليه وابن عقيل فى كثير من كلامه وأبى بكر البيهقى وأبى المعالى وغيرهم سلك مسلك أولئك وهذه الامور مبسوطة فى موضعها ﴿ والمقصود ﴾ هنا ان كل طائفة تعتقد من الآراء ماينافض مادل عليه القرآن يجعلون تلك النصوص من المتشابهة ثم ان كانوا ممن يرى الوقف عند قوله (الا الله) قالوا لايعلم معناها الا الله فيلزم أن لايكون محمد وجبريل ولا أحد علم معانى تلك الآيات والاخبار وان رأوا الوقف على قوله (والراسخون فى العلم) جعلوا الراسخين يعلمون مايسمونه هم تاويلا ويقولون ان الرسول انما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس في معرفة الحق من غير جهته بعقولهم وأذهانهم ويجتهدون فى تخريج ألفاظه

على اللغات العربية فيجتهدون فى معرفة غرائب اللغات التى يتمكنون بها من التأويل وهذا ان قالوا انه قصد بالقرآن والحديث معنى حقا فى نفس الامر وان قالوا بقول الفلاسفة والباطنية الذين لايرون التأويل قالوا لم يقصد بهذه الالفاظ الامايفهمه العامة والجمهور وهو باطل فى نفس الأمر لكن أراد أن يخيل لهم ماينتفعون به ولم يمكنه أن يعرفهم الحق فانهم كانوا ينفرون عنه ولايقبلونه وأما من قال من الباطنية الملاحدة وفلاسفتهم بالتاويل فانه يتأول كل شيء مما أخبرت به الرسل من أمر الايمان واليوم الآخر ثم يؤلون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية وأبي حامد فى الاحياء ذكر قول هؤلاء المتاولين من الفلاسفة وقال انهم أسرفوا فى التأويل وأسرفت الحنابلة فى الجمود وذكر عن أحمد بن حنبل كلاما لم يقله أحمد فانه لم يكن يعرف ماقاله أحمد ولاماقاله غيره من السلف فى هذا الباب ولا ماجاء به القرآن والحديث وقد سمع مضافا الى الحنابلة مايقوله طائفة منهم ومن غيرهم من المالكية والشافعية وغيرهم فى الحرف والصوت وبعض الصفات مثل قولهم ان الاصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية وان الحروف المتعاقبة قديمة أزلية وأنه ينزل الى سماء الدنيا ويخلو منه العرش حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه وبعضهم تحته الى غير ذلك من المنكرات فانه مامن طائفة الا وفى بعضهم من يقول أقوالا ظاهرها الفساد وهى التى يحفظها من ينفر عنهم ويشنع بها عليهم وان كان أكثرهم ينكرها ويدفعها كما فى هذه المسائل المنكرة التى يقولها بعض أصحاب أحمد ومالك والشافعى فان جماهير هذه الطوائف ينكرها وأحمد وجمهور أصحابه منكرون لها *

وكلامهم فى انكارها وردها كثير جدا لكن يوجد فى أهل الحديث مطلقا من الحنبلية وغيرهم من الغلط فى الاثبات أكثر مما يوجد فى أهل

الكلام ويوجد فى أهل الكلام من الغلط فى النفى أكثر مما يوجد فى أهل الحديث لان الحديث انما جاء باثبات الصفات ليس فيه شىء من النفى الذى انفرد به أهل الكلام والكلام المأخوذ عن الجهمية والمعتزلة مبنى على النفى المناقض لصرائح القرآن والحديث بل والعقل الصريح أيضا لكنهم يدعون أن العقل دل على النفى وقد ناقضهم طوائف من أهل الكلام وزادوا فى الاثبات كالهشامية والكرامية وغيرهم لكن النفى فى جنس الكلام المبتدع الذى ذمه السلف أكثر والمنتسبون الى السنة من الحنبليين وغيرهم الذين جعلوا لفظ التأويل يعم القسمين يتمسكون بما يحدثونه فى كلام الائمة فى المتشابه مثل قول أحمد فى رواية حنبل ولا كيف ولا معنى ظنوا أن مراده انا لانعرف معناها وكلام أحمد صريح بخلاف هذا فى غير موضع وقد بين انه انما ينكر تأويلات الجهمية ونحوهم الذين يتاولون القرآن على غير تأويله وصنف كتابه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما أنكرته من متشابه القرآن وتأولته على غير تاويله فانكر عليهم تاويل القرآن على غير مراد الله ورسوله وهم اذا تاولوه يقولون معنى هذه الاية كذا والمكيفون يثبتون كيفية يقولون انهم علموا كيفية ما أخبروا به من صفات الرب فنفى أحمد قول هؤلاء وهؤلاء قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية وقول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون معناه كذا وكذا وقد كتبت كلام أحمد بالفاظه كما ذكره الخلال فى كتاب السنة وكما ذكره من نقل كلام أحمد باسناده فى الكتب المصنفة فى ذلك فى غير هذا الموضع وبين أن لفظ التاويل فى الاية انما أريد به التاويل فى لغة القرآن كقوله تعالى: (هل ينظرون الا تاويله يوم يأتى تاويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا

نعمل) وعن ابن عباس فى قوله (هل ينظرون الا تاويله) تصديق ماوعد فى القران ، وعن قتادة تاويله ثوابه، وعن مجاهد جزاءه وعن السدى عاقبته وعن ابن زيد حقيقته قال بعضهم تاويله مايؤل اليه أمرهم من العذاب وورود النار ، وقوله تعالى (بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله) قال بعضهم تصديق ماوعدوا به من الوعيد والتاويل مايؤل اليه الامر، وعن الضحاك يعنى عاقبة ماوعد الله فى القران انه كان من الوعيد والتاويل مايؤل اليه الامر ، وقال الثعلبى تفسيره وليس بشىء وقال الزجاج لم يكن معهم علم تاويله وقال يوسف الصديق عليه السلام (ياأبت هذا تاويل رؤياى من قبل) فجعل نفس سجود أبويه له تاويل رؤياه وقال قبل هذا (لا ياتيكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتاويله) أى قبل أن ياتيكما التاويل والمعنى لا ياتيكما طعام ترزقانه فى المنام كما قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الاخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا الا نباتكما بتاويله فى اليقظة قبل أن ياتيكما التاويل هذا قول أكثر المفسرين وهو الصواب وقال بعضهم لا ياتيكما طعام ترزقانه تطعمانه وتاكلانه الا نباتكما بتاويله بتفسيره وألوانه أى طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم فقالوا هذا فعل العرافين والكهنة فقال ماأنا بكاهن وانما ذلك العلم مما يعلمنى ربى وهذا القول ليس بشىء فانه قال الا نباتكما بتاويله وقد قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا نبئنا بتاويله فطلبا منه تاويل مارأياه وأخبرهما بتاويل ذلك ولم يكن تاويله طعام فى اليقظه ولا فى القران انه أخبرهما بما يرزقانه فى اليقظة فكيف يقول قولا عاما لا يأتيكما طعام ترزقانه وهذا الاخبار العام لا يقدر عليه الا الله والانبياء يخبرون ببعض ذلك لا يخبرون بكل هذا وأيضا فصفة الطعام وقدره ليس تأويلا له وأيضا فالله انما أخبر أنه

علمه تاويل الرؤيا قال يعقوب عليه السلام (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الأحاديث) وقال يوسف عليه السلام : (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تاويل الاحاديث) وقال (هذا تاويل رؤياى من قبل) ولما رأى الملك قال له الذى ادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتاويله فأرسلون والملك قال يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين فهذا لفظ التأويل فى مواضع متعددة كلها بمعنى واحد وقال تعالى (فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال مجاهد وقتادة جزاء وثوابا ، وقال السدى وابن زيد وابن قتيبة والزجاج عاقبة وعن ابن زيد أيضا تصديقا كقوله (هذا تأويل رؤياى من قبل) وكل هذه الاقوال صحيحة والمعنى واحد وهذا تفسير السلف أجمعين ومنه قوله (سانبئك بتاويل مالم تستطع عليه صبرا) فلما ذكر له ماذكر قال (ذلك تاويل مالم تسطع عليه صبرا) *

وهذا تاويل فعله ليس هو تأويل قوله والمراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول اليه مافعلته من مصلحة أهل السفينة ومصلحة أبوى الغلام ومصلحة أهل الجدار ، وأما قول بعضهم ردكم الى الله والرسول أحسن من تاويلكم فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم وهذا من جنس ماذكر من تلك الآية فى لفظ التأويل وهو تفسير له بالاصطلاح الحادث لا بلغة العرب فاما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء كما يقول ابن جرير القول فى تأويل هذه الآية اى فى تفسيرها ولما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد وهو امام التفسير جعل الوقف على قوله (والراسخون فى العلم) فان الراسخين فى العلم يعلمون تفسيره وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة

وكان ابن قتيبة يميل الى مذهب أحمد واسحق وقد بسط الكلام على ذلك فى كتابه فى المشكل وغيره ، وأما متاخروا المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير والتاويل قال فمعنى التفسير هو التنوير وكشف المغلق من المراد بلفظه والتأويل صرف الآية الى معنى تحتمله يوافق ماقبلها وما بعدها وتكلم فى الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه الا أن التاويل الذى ذكره هو المعنى الثالث المتأخر ، وأبو الفرج ابن الجوزى يقول اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى واحد أم يختلفان ؟ فذهب قوم يميلون الى العربية الى أنهما بمعنى وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين ، وذهب قوم يميلون الى الفقه الى اختلافهما فقالوا التفسير اخراج الشيء عن مقام الخفاء الى مقام التجلى والتاويل نقل الكلام عن وضعه الى مايحتاج فى اثباته الى دليل لولاه ماترك ظاهر اللفظ فهو مأخوذ من قولك آل الشيء الى كذا أى صار اليه ، فهؤلاء لايذكرون للتأويل الا المعنى الأول والثانى وأما التأويل فى لغة القرآن فلا يذكرونه وقد عرف أن التأويل فى القرآن هو الموجود الذى يؤول اليه الكلام وان كان ذلك موافقا للمعنى الذى يظهر من اللفظ بل لايعرف فى القرآن لفظ التأويل مخالفا لما يدل عليه اللفظ خلاف اصطلاح المتأخرين ، والكلام نوعان انشاء واخبار فالانشاء الأمر والنهى والاباحة وتاويل الأمر والنهى نفس فعل المامور ونفس ترك المحظور كما فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت «كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلى يتاول القرآن فكأن هذا الكلام تاويل قوله : (فسبح بحمد ربك واستغفره) قال ابن عيينة السنة تاويل الأمر والنهى وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء وأهل اللغة فى نهيه عن اشتمال الصماء قال والفقهاء

أعلم بالتاويل يقول هم اعلم بتاويل ما أمر الله به وما نهى عنه فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التى أمر بها وأعيان الأفعال المحظورة التى نهى عنها *

وتفسير كلامه ليس هو نفس ما يوجد فى الخارج بل هو بيانه وشرحه وكشف معناه ، فالتفسير من جنس الكلام يفسر الكلام بكلام يوضحه وأما التأويل فهو فعل المأمور به وترك المنهى عنه ليس من جنس الكلام والنوع الثانى الخبر كاخبار الرب عن نفسه تعالى باسمائه وصفاته واخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد وهذا هو التأويل المذكور فى قوله : (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) وهذا كقولهم (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) ومثله (انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون) وقوله (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) ونظائره متعددة فى القرآن وكذلك قوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تاويله) فان ما وعدوا به فى القرآن لما يأتهم بعد وسوف يأتيهم ، فالتفسير هو الاحاطة بعلمه والتاويل هو نفس ما وعدوا به اذا أتاهم فهم كذبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله وقد يحيط الناس بعلمه ولما ياتهم تاويله فالرسول صلى الله عليه وسلم يحيط بعلم ما أنزل الله عليه وان كان تاويله لم يأت بعد ، وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) الآية قيل انها كائنة ولم يأت تاويلها بعد قال تعالى (وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل

لكل نبأ مستقر) قال بعضهم موضع قرار وحقيقة ومنتهى ينتهى اليه فيبين
حقه من باطله وصدقه من كذبه ، وقال مقاتل لكل خبر يخبر به الله وقت
ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تاخير ، وقال ابن السائب لكل قول وفعل
حقيقة ماكان منه فى الدنيا فستعرفونه وماكان فى الآخرة فسوف يبدو لكم
وسوف تعلمون ، وقال الحسن لكل عمل جزاء فمن عمل عملا من الخير جوزى
به فى الجنة ومن عمل عملا سوءا جوزى به فى النار وسوف تعلمون ، ومعنى
قول الحسن ان الاعمال قد وقع عليها الوعد والوعيد فالوعد والوعيد عليها
هو النبأ الذى له المستقر فبين المعنى ولم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ
وعن السدى قال لكل نبأ مستقر أى ميعاد وعد تكموه فسيأتيكم حتى تعرفونه
وعن عطاء لكل نبأ مستقر تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه فاذا عمل ذنبه عاقبه
أى لا يعاقب بالوعيد حتى يفعل الذنب الذى توعد عليه *

ومنه قول كثير من السلف فى آيات هذه ذهب تاويلها وهذه لم يات
تاويلها مثل ماروى أبو الاشهب عن الحسن والربيع عن أبى العالية أن
هذه الآية قرئت على ابن مسعود (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الآية
فقال ابن مسعود ليس هذا بزمانها قولوها ماقبلت منكم فاذا ردت عليكم
فعليكم أنفسكم ثم قال ان القرآن نزل حيث نزل فمنه آى قد مضى تاويلهن قبل أن
ينزلن ومنه آى وقع تاويلهن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومنه آى وقع تاويلهن بعد النبى
صلى الله عليه وسلم بيسير ومنه آى يقع تاويلهن بعد اليوم ومنه آى يقع تاويلهن فى آخر
الزمان ومنه آى يقع تاويلهن يوم القيامة ماذكر من الحساب والجنة والنار
فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم باس
بعض فامروا وانهوا فاذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا وذاق
بعضكم باس بعض فامرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تاويل هذه الآية *

فابن مسعود رضى الله عنه قد ذكر فى هذا الكلام تاويل الامر وتاويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الامر وماذكر من الحساب والقيامة من باب الخبر وقد تبين أن تاويل الخبر هو وجود المخبر به وتاويل الامر هو فعل المامور به فالآية التى مضى تاويلها قبل نزولها من باب الخبر يقع الشىء فيذكره الله كما ذكر ماذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له وهى وان مضى تاويلها فهى عبرة ومعناها ثابت فى نظيرها ، ومن هذا قول ابن مسعود خمس قد مضين ، ومنه قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) واذا تبين ذلك فالمتشابه من الأمر لابد من معرفة تاويله لأنه لابد من فعل المأمور وترك المحظور وذلك لايمكن الابعد العلم لكن ليس فى القرآن مايقتضى أن فى الأمر متشابها فان قوله (وأخر متشابهات) قد يراد به من الخبر فالمتشابه من الخبر مثل ما أخبر به فى الجنة من اللحم واللبن والماء والحرير والذهب كان بين هذا وبين مافى الدنيا تشابه فى اللفظ والمعنى ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا وتلك الحقيقة لانعلمها نحن فى الدنيا وقد قال الله تعالى (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » فهذا الذى وعد الله به عباده المؤمنين لاتعلمه نفس هو من التاويل الذى لايعلمه الا الله وكذلك وقت الساعة لايعلمه الا الله وأشراطها وكذلك كيفيات مايكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب لايعلم كيفيته الا الله فانه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به فهو من التاويل المتشابه الذى لايعلمه الا الله وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك فان

كيفيات ذلك لايعلمها الا الله كما قال ربيعة بن أبى عبد الرحمن ومالك بن أنس وسائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل الرحمن على العرش استوى كيف استوى فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة هذا لفظ مالك فاخبر ان الاستواء معلوم وهذا تفسير اللفظ وأخبر ان الكيف مجهول وهذا هو الكيفية التى استاثر الله بعلمها وكذلك سائر السلف كابن الماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما يبينون أن العباد لايعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فالكيفية هى التأويل الذى لا يعلمه الا الله وأما نفس المعنى الذى بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فانهم يفهمون معنى السمع ومعنى البصر وأن مفهوم هذا ليس مفهوم هذا ويعرفون الفرق بينهما وبين العليم والقدير وان كانوا لايعرفون كيفية سمعه وبصره بل الروح التى يعرفونها من حيث الجملة ولايعرفون كيفيتها كذلك يعلمون معنى الاستواء على العرش وأنه يتضمن علو الرب على عرشه وارتفاعه عليه كما فسره بذلك السلف قبلهم وهذا معنى معروف من اللفظ لايحتمل فى اللغة غيره كما قد بسط فى موضعه ولهذا قال مالك الاستواء معلوم ومن قال الاستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه فانهم يقولون استوى فقط ولايصلونه بحرف وهذا له معنى ويقولون استوى على كذا وله معنى واستوى الى كذا وله معنى واستوى مع كذا وله معنى فتتنوع معانيه بحسب صلاته وأما استوى على كذا فليس فى القرآن ولغة العرب المعروفة الا بمعنى واحد قال تعالى: (فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) وقال (واستوت على الجودى) وقال (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) وقد أتى النبى صلى الله عليه وسلم بدابة ليركبها فلما وضع رجله فى المغرز قال «بسم الله فلما استوى على ظهرها قال الحمد لله» وقال ابن

عمر: أهل رسول الله ﷺ بالحج لما استوى على بعيره وهذا المعنى يتضمن شيئين علوه على مااستوى عليه واعتداله أيضافلا يسمون المائل على الشيء مستويا عليه ، ومنه حديث الخليل بن أحمد لما قال استووا وقوله :

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

هو من هذا الباب فان المراد به بشر بن مروان واستواؤه عليها أى على كرسى ملكها لم يرد بذلك مجرد الاستيلاء بل استواء منه عليها اذلو كان كذلك لـكان عبد الملك الذى هو الخليفة قد استوى أيضا على العراق وعلى سائر مملكة الاسلام ولكان عمر بن الخطاب قد استوى على العراق وخراسان والشام ومصر وسائر مافتحه ولكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استوى على اليمن وغيرها مما فتحه ، ومعلوم انه لم يوجد فى كلامهم استعمال الاستواء فى شيء من هذا وانما قيل فيمن استوى بنفسه على بلد فانه مستو على سرير ملكه كما يقال جلس فلان على السرير وقعد على التخت ومنه قوله (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) وقوله (انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) وقول الزمخشرى وغيره استوى على كذا بمعنى ملك دعوى مجردة فليس لها شاهد فى كلام العرب ولو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلا فى استواء الله على العرش لانه أخبر انه خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد أخبر أن العرش كان موجودا قبل خلق السموات والارض كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وحينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه فكيف يكون الاستواء عليه مؤخرا عن خلق السموات والارض ، وأيضا فهو مالك لـكل شيء مستول عليه لا يخص العرش بالاستواء ، وليس هذا كتخصيصه بالربوبية في قوله رب العرش فانه قد يخص لعظمته ولكن

يجوز ذلك فى سائر المخلوقات فيقال رب العرش ورب كل شىء ، وأما الاستواء المختص بالعرش فلا يقال استوى على العرش، وعلى كل شىء ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين فى كل شىء ولا وجد فى كتاب ولا سنة كما استعمل لفظ الربوبية فى العرش خاصة وفى كل شىء عامة وكذلك لفظ الخلق ونحوه من الالفاظ التى تخص وتعم كقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق) فالاستواء من الالفاظ المختصة بالعرش لا تضاف الى غيره لا خصوصا ولا عموما وهذا مبسوط فى موضع آخر ، وانما الغرض بيان صواب كلام السلف فى قولهم : الاستواء معلوم بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى كما ذكر ذلك ابن عربى المعافرى يبين هذا ان سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران ومناظرتهم للنبى ﷺ فى أمر المسيح كما ذكر ذلك أهل التفسير وأهل السيرة وهو من المشهور بل المتواتر انه من المتواتر ان نصارى نجران قدموا على النبى ﷺ ودعاهم الى المباهلة المذكورة فى سورة آل عمران فاقروا بالجزية ولم يباهلوه ، وصدر آل عمران نزل بسبب ماجرى ولهذا عامتها فى أمر المسيح وذكروا أنهم احتجوا بما فى القرآن من لفظ انا ونحن ونحو ذلك على أن الالهة ثلاثة فاتبعوا المتشابه وتركوا المحكم الذى فى القرآن من أن الاله واحد ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله فانهم قصدوا بذلك الفتنة وهى فتنة القلوب بالكفر وابتغاء تاويل لفظ انا ونحن ومايعلم تاويل هذه الاسماء الا الله لان هذه الاسماء انما تقال للواحد الذى له أعوان اما أن يكونوا شركاء له واما أن يكونوا مماليك له ولهذا صارت متشابهة فان الذى معه شركاء يقول فعلنا نحن كذا وانا نفعل نحن كذا وهذا ممتنع فى حق الله تعالى والذى له مماليك ومطيعون يطيعونه كالملك يقول فعلنا كذا أى أنا فعلت باهل ملكى وملكى وكل ماسوى الله مخلوق

له مملوك له وهو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه وملائكته التى هى رسله فى خلقه وأمره وهو سبحانه أحق من قال انا ونحن بهذا الاعتبار فان ماسواه ليس له ملك تام ولا أمر مطاع طاعة تامة فهو المستحق أن يقول انا ونحن والملوك لهم شبه بهذا فصار فيه أيضا من المتشابه معنى آخر ولكن الذى ثبت لله من هذا الاختصاص لايماثله فيه شيء، وتاويل ذلك معرفة ملائكته وصفاتهم واقدارهم و كيف يدبر بهم أمر السماء والارض، وقد قال تعالى (ومايعلم جنود ربك الاهو) فهذا التاويل لهذا المتشابه لايعلمه الاهو وان علمنا تفسيره ومعناه لكن لم نعلم تاويله الواقع فى الخارج بخلاف قوله (الله الذى خلق) فانها آية محكمة ليس فيها تشابه فان هذا الاسم مختص بالله ليس مثل أنا ونحن التى تقال لمن له شركاء ولمن له أعوان يحتاج اليهم والله تعالى منزه عن هذا وهذا كما قال (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولافى الارض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير) وقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) فالمعنى الذى يراد به هذا فى حق المخلوقين لايجوز أن يكون نظيره ثابتا لله فلهذا صار متشابها وكذلك قوله (ثم استوى على العرش) فانه قد قال (واستوت على الجودى) (واستوى على سوقه) وقال (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك) وقال (لتستووا على ظهوره) فهذا الاستواء كله يتضمن حاجة المستوى الى المستوى عليه وانه لو عدم من تحته لخر والله تعالى غنى عن العرش وعن كل شيء بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش وحملة العرش، وقد روى أنهم انما أطاقوا حمل العرش لما أمرهم أن يقولوا لاحول ولاقوة الا بالله *

فصار لفظ الاستواء متشابها يلزمه فى حق المخلوقين معانى ينزه الله عنها فنحن نعلم معناه وانه العلو والاعتدال لكن لانعلم الكيفية التى اختص بها الرب التى يكون بها مستويا من غير افتقارمنه الى العرش بل مع حاجة العرش وكل شيء محتاج من كل وجه وأنالم نعهد فى الموجودات مايستوى على غيره مع غناه عنه وحاجة ذلك المستوى عليه الى المستوى فصار متشابها من هذا الوجه فان بين اللفظين والمعنيين قدرا مشتركا وبينهما قدرا فارقا هومراد فى كل منهما ونحن لانعرف الفارق الذى امتاز الرب به فصرنا نعرفه من وجه ونجهله من وجه وذلك هوتأويله والاول هو تفسيره *

وكذلك ماأخبر الله به فى الجنة من المطاعم والمشارب والملابس كاللبن والعسل والخمر والماء فانا لانعرف لبنا الامخلوقا من ماشية يخرج من بين فرث ودم واذا بقى أياما يتغير طعمه ، ولانعرف عسلا الامن نحل تصنعه فى بيوت الشمع المسدسة فليس هو عسلا مصفى ولانعرف حريرا الامن دود القز وهو يبلى وقدعلمنا أن ماوعد الله به عباده ليس مماثلا لهذه لافى المادة ولا فى الصورة والحقيقة بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه وذلك هو من التأويل الذى لانعلمه نحن ، قال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الاسماء لكن يقال فالملائكة قد تعلم هذا فيقال هى لاتعلم مالم يخلق بعد ولاتعلم كل مافى الجنة ، وأيضا فمن النعم مالا تعرفه الملائكة والتأويل يتناول هذا كله واذا قدرنا أنها لاتعرف مالانعرفه فذاك لايكون من المتشابه عندها ويكون من المتشابه عندنا فان المتشابه قد يراد به ماهو صفة لازمة للآية وقد يراد به ماهو من الامور النسبية فقد يكون متشابها عند هذا مالايكون متشابها عند هذا ، وكلام الامام أحمد وغيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فان أحمد ذكر فى رده على الجهمية انها احتجت بثلاث آيات من المتشابه ، قوله

(وهو الله فى السموات وفى الارض) وقوله (ليس كمثله شىء) وقوله (لاتدركه الابصار) وقد فسر أحمد قوله (وهو الله فى السموات وفى الارض) فاذاكانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهة عندنا وهى متشابهة عند من احتج بها وكان عليه أن يردها هو الى مايعرفه من المحكم ، وكذلك قال أحمد في ترجمة كتابه الذى صنفه فى الحبس وهو الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ثم فسر أحمد تلك الآيات آية آية فبين أنها ليست متشابهة عنده بل قد عرف معناها وعلى هذا فالراسخون فى العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذى هو تفسيره وأما التاويل الذى هو حقيقته الموجودة فى الخارج فتلك لايعلمها الا الله ولكن قد يقال هذا المتشابه الاضافى ليس هو المتشابه المذكور فى القرآن فان ذلك قد أخبر الله انه لايعلم تاويله الا الله وانما هذا كما يشكل على كثير من الناس آيات لايفهمون معناها وغيرهم من الناس يعرف معناها وعند هذا فقد يجاب بجوابين، أحدهما أن يكون فى الآية قراءتان قراءة من يقف على قوله الا الله وقراءة من يقف عند قوله والراسخون فى العلم وكلتا القراءتين حق ويراد بالاولى المتشابه فى نفسه الذى استاثر الله بعلم تاويله ويراد بالثانية المتشابه الاضافى الذى يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله ومثل هذا يقع فى القرآن كقوله (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) ولتزول فيه قراءتان مشهورتان بالنفى والاثبات وكل قراءة لها معنى صحيح وكذلك القراءة المشهورة (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وقرأ طائفة من السلف (لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وكلا القراءتين حق فان الذى يتعدى حدود الله هو الظالم والتارك الانكار عليه وقد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه وقد يجعل ظالما باعتبار ماترك من الانكار الواجب

وعلى هذا قوله (فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) فانجى الله الناهين ، وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا (لم تعظون قوما) فالاكثرون على أنهم نجوا لانهم كانوا كارهين فانكروا بحسب قدرتهم * والجواب الثانى القطع بان المتشابه المذكور فى القرآن هو تشابهها فى نفسها وذاك الذى لا يعلم تاويله الا الله ، وأما الاضافى الموجود فى كلام من أراد به المتشابه الاضافى فمرادهم انهم تكلموا فيما اشتبه معناه وأشكل معناه على بعض الناس وأن الجهمية استدلوا بما اشتبه عليهم وأشكل وان لم يكن هو من المتشابه الذى لا يعلم تاويله الا الله ، وكثيرا ما يشتبه على الرجل ما لا يشتبه على غيره ويحتمل كلام الامام أحمد انه لم يرد الا المتشابه فى نفسه الذى يلزمه التشابه لم يرد بشىء منه التشابه الاضافى وقال تاولته على غير تاويله أى غير تاويله الذى هو تاويله فى نفس الامر وان كان ذلك التاويل لا يعلمه الا الله وأهل العلم يعلمون ان المراد به ذلك التاويل فلا يبقى مشكلا عندهم محتملا لغيره ولهذا كان المتشابه فى الخبريات اما عن الله واما عن الآخرة وتأويل هذا كله لا يعلمه الا الله بل المحكم من القرآن قد يقال له تأويل كما للمتشابه تاويل كما قال (هل ينظرون الا تأويله) ومع هذا فذلك التأويل لا يعلم وقته وكيفيته الا الله وقد يقال بل التأويل للمتشابه لأنه فى الوعد والوعيد وكله متشابه وأيضا فلا يلزم فى كل آية ظنها بعض الناس متشابها أن تكون من المتشابه *

فقول أحمد احتجوا بثلاث آيات من المتشابه وقوله ما شكت فيه من متشابه القران قد يقال ان هؤلاء أو أن أحمد جعل بعض ذلك من المتشابه وليس منه فان قول الله تعالى (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) لم يرد به هنا الاحكام العام والتشابه العام الذى يشترك فيه جميع

آيات القرآن وهو المذكور في قوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) وفى قوله (الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) فوصفه هنا كله بأنه متشابه اى متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضا وهو عكس المتضاد المختلف المذكور فى قوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وقوله (انكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك) فان هذا التشابه يعم القرآن كما أن أحكام آياته تعمه كله وهنا قد قال (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فجعل بعضه محكما وبعضه متشابها فصار التشابه له معنيان وله معنى ثالث وهو الاضافى يقال قد اشتبه علينا هذا كقول بنى اسرائيل (ان البقر تشابه علينا) وان كان فى نفسه متميزا منفصلا بعضه عن بعض وهذا من باب اشتباه الحق بالباطل كقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث «الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس» فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها فليست مشتبهة على جميع الناس بل على بعضهم بخلاف ما لا يعلم تأويله الا الله فان الناس كلهم مشتركون فى عدم العلم بتأويله ومن هذا ما يروى عن المسيح عليه السلام انه قال الامور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه الى عالمه فهذا المشتبه على بعض الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه ويبينوا الفرق بين المشتبهين وهذا هو الذى أراده من جعل الراسخين يعلمون التاويل فانه جعل المشتبهات فى القرآن من هذا الباب الذى يشتبه على بعض الناس دون بعض ويكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه ما يعرفه بعض الناس وهذا المعنى صحيح فى نفسه لا ينكر ولا ريب أن الراسخين فى العلم يعلمون ما اشتبه على غيرهم وقد يكون هذا قراءة فى الآية كما تقدم من أن يكون فيها قراءتان لكن لفظ

التاويل على هذا يراد به التفسير ووجه ذلك انهم يعلمون تاويله من حيث
الجملة كما يعلمون تأويل المحكم فيعرفون الحساب والميزان والثواب والعقاب
وغير ذلك مما أخبر الله به ورسوله معرفة مجملة فيكونون عالمين بالتاويل
وهو مايقع فى الخارج على هذا الوجه ولا يعلمونه مفصلا اذهم لا يعرفون
كيفيته وحقيقته اذ ذلك ليس مثل الذى علموه فى الدنيا وشاهدوه وعلى
هذا يصح أن يقال علموا تاويله وهو معرفة تفسيره ويصح أن يقال لم
يعلموا تاويله وكلا القراءتين حق وعلى قراءة النفى هل يقال أيضا ان المحكم
له تاويل لا يعلمون تفصيله فان قوله وما يعلم تاويل ما تشابه منه الا الله لا يدل
على أن غيره يعلم تاويل المحكم بل قد يقال ان من المحكم أيضا مالا يعلم تاويله
الا الله وانما خص المتشابه بالذكر لان أولئك طلبوا علم تاويله أو يقال
بل المحكم يعلمون تاويله لكن لا يعلمون وقت تاويله ومكانه وصفته وقد
قال كثير من السلف ان المحكم ما يعمل به والمتشابه ما يؤمن به ولا يعمل
به كما يجىء فى كثير من الآثار ونعمل بمحكمه ونؤمن بمتشابهه وكما جاء عن
ابن مسعود وغيره فى قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته)
قال يحللون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه
وكلام السلف فى ذلك يدل على أن المتشابه أمر اضافى فقد يشتبه على هذا
مالا يشتبه على هذا فعلى كل احد أن يعمل بما استبان له ويكل ما اشتبه عليه
الى الله كقول أبى ابن كعب رضى الله عنه فى الحديث الذى رواه الثورى
عن مغيرة وليس بالضبى عن أبى العالية قال قيل لابى بن كعب أوصنى فقال
اتخذ كتاب الله اماما ارض به قاضيا وحاكما هو الذى استخلف فيكم رسوله
شفيع مطاع وشاهد لا يتهم فيه خبر ماقبلكم وخبر ما بينكم وذكر ماقبلكم
وذكر مافيكم ، وقال سفيان عن رجل حدثناه عن ابن أبزى عن أبى قال فما

استبان لك فاعمل به وماشبه عليك فآمن به وكله الى عالمه فنهم من قال المتشابه هو المنسوخ ومنهم من جعله الخبريات مطلقا فعن قتادة والربيع والضحاك والسدى المحكم الناسخ الذى يعمل به والمتشابه المنسوخ يؤمن به ولا يعمل به وكذلك فى تفسير العوفى عن ابن عباس فقال محكمات القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه ومايؤمن به ولايعمل به أما القول الاول فهو والله أعلم ماخوذ من قوله (فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) فقابل بين المنسوخ وبين المحكم وهو سبحانه انما أراد نسخ ماألقاه الشيطان لم يرد نسخ ماأنزله لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابها لانه يشبه غيره فى التلاوة والنظم وانه كلام الله وقرآن ومعجز وغير ذلك من المعانى مع ان معناه قد نسخ ومن جعل المتشابه كل مالايعمل به من المنسوخ والاقسام والامثال فلان ذلك متشابه ولم يؤمر الناس بتفصيله بل يكفيهم الايمان المجمل به بخلاف المعمول به فانه لابد فيه من العلم المفصل *

وهذا بيان لما يلزم كل الأمة فانهم يلزمهم معرفة مايعمل به مفصلا ليعملوا به وماأخبروا به فليس عليهم معرفته بل عليهم الايمان به وان كان العلم به حسنا أوفرضا على الكفاية فليس فرضا على الأعيان بخلاف مايعمل به ففرض على كل انسان معرفة مايلزمه من العمل مفصلا وليس عليه معرفة العلميات مفصلا وقد روى عن مجاهد وعكرمة المحكم مافيه من الحلال والحرام وماسوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضا فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور فى قوله كتابا متشابها مثانى والحلال مخالف للحرام وهذا على قول مجاهد ان العلماء يعلمون تأويله لكن تفسير المتشابه

بهذا مع ان كل القرآن متشابه وهنا خص البعض به يستدل به على ضعف
هذا القول وكذلك قوله يتبعون ماتشابه منه لو أريد بالمتشابه تصديق بعضه
بعضا لكان اتباع ذلك غير محذور وليس فى كونه يصدق بعضه بعضا ما يمنع
ابتغاء تأويله وقد يحتج لهذا القول بقوله متشابهات فجعلها أنفسها متشابهات
وهذا يقتضى أن بعضها يشبه بعضا ليست مشابهة لغيرها ويجاب عن هذا
بأن اللفظ اذا ذكر فى موضعين معينين صار من المتشابه كقوله انا ونحن
المذكور فى سبب نزول الآية وقد ذكر محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر
ابن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران ونزول الآية قال المحكم مالا يحتمل من
التأويل الا وجها واحدا والمتشابه مااحتمل فى التاويل أوجها ومعنى هذا
ان ذلك اللفظ المحكم لايكون تأويله فى الخارج الا شيئا واحدا وأما
المتشابه فيكون له تاويلات متعددة لكن لم يرد الله الاواحدا منها وسياق
الآية يدل على المراد وحينئذ فالراسخون فى العلم يعلمون المراد من هذا كما
يعلمون المراد من المحكم لكن نفس التأويل الذى هو الحقيقة ووقت الحوادث
ونحو ذلك لايعلمونه لا من هذا ولا من هذا وقد قيل ان نصارى نجران
احتجوا بقوله كلمة الله وروح منه ولفظ كلمة الله يراد به الكلام ويراد به
المخلوق بالكلام وروح منه يراد به ابتداء الغاية ويراد به التبعيض فعلى
هذا اذا قيل تأويله لايعلمه الا الله المراد به الحقيقة أى لايعلمون كيف
خلق عيسى بالكلمة ولا كيف أرسل اليها روحه فتمثل لها بشرا سويا
ونفخ فيها من روحه ، وفى الصحيح صحيح البخارى عن عائشة عن النبى ﷺ
قال «اذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»
والمقصود هنا أنه لايجوز أن يكون الله أنزل كلاما لامعنى له ولايجوز أن
يكون الرسول وجميع الأمة لايعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من

المتأخرين وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما ولا يعلمون الآخر واذا دار الأمر بين القول بان الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن وبين أن يقال الراسخون فى العلم يعلمون كان هذا الاثبات خيرا من ذلك النفى فان معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره وهذا مما يجب القطع به وليس معنا قاطع على أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تفسير المتشابه فان السلف قد قال كثير منهم أنهم يعلمون تاويله منهم مجاهد مع جلالة قدره والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير ونقلوا ذلك عن ابن عباس وأنه قال أنا من الراسخين الذين يعلمون تاويله وقول احمد فيما كتبه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تاويله وقوله عن الجهمية انها تأولت ثلاث ايات من المتشابه ثم تكلم على معناها دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه وأن المذموم تأويله على غير تأويله فاما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم وهذا يقتضى أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده وهو التفسير فى لغة السلف ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف أن فى القرآن ايات لا يعرف الرسول ولا غيره معناها بل يتلون لفظا لا يعرفون معناه وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة منهم ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقى وغيرهما وابن قتيبة من المنتسبين الى أحمد واسحق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة وله فى ذلك مصنفات متعددة ، قال فيه صاحب كتاب التحديث بمناقب أهل الحديث وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء أجودهم تصنيفا وأحسنهم ترصيفا له زهاء ثلاثمائة مصنف وكان يميل الى مذهب أحمد وإسحق وكان معاصرا

لابراهيم الحربى ومحمد بن نصر المروزى وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة ويقولون كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لاخير فيه قلت ويقال هو لاهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فانه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة ، وقد نقل عن ابن عباس ايضا القول الآخر ونقل ذلك عن غيره من الصحابة وطائفة من التابعين ولم يذكر هؤلاء على قولهم نصا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصارت مسألة نزاع فترد الى الله والرسول وأولئك احتجوا بأنه قرن ابتغاء الفتنة بابتغاء تأويله وبأن النبى صلى الله عليه وسلم ذم مبتغى المتشابه وقال اذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فاحذروهم ، ولهذا ضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه صبيغ بن عسل لما سأله عن المتشابه ولأنه قال والراسخون فى العلم يقولون، ولو كانت الواو واو عطف مفرد على مفرد لاواو استئناف التى تعطف جملة على جملة لقال ويقولون ٭

فاجاب الآخرون عن هذا بان الله قال (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا) ثم قال (والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون) ثم قال (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) قالوا فهذا عطف مفرد على مفرد والفعل حال من المعطوف فقط وهو نظير قوله (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا)قالوا ولأنه لوكان المراد مجرد الوصف بالايمان لم يخص الراسخين بل قال والمؤمنون يقولون آمنا به فان كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به فلما خص الراسخين فى العلم بالذكر علم أنهم امتازوا بعلم تأويله فعلموه لانهم عالمون وآمنوا به لانهم يؤمنون وكان ايمانهم به مع العلم أكمل فى الوصف وقد قال عقب ذلك

وما يذكر الا أولو الالباب ، وهذا يدل على أن هنا تذكرا يختص به أولو الالباب فان كان ماتم الايمان بالالفاظ فلا تذكر لما يدلهم على ما أريد بالمتشابه ، ونظير هذا قوله فى الآية الاخرى (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك) فلما وصفهم بالرسوخ فى العلم وانهم يؤمنون قرن بهم المؤمنين فلو أريد هنا مجرد الايمان لقال والراسخون فى العلم والمومنون يقولون امنا به كما قال فى تلك الآية لما كان مراده مجرد الاخبار بالايمان جمع بين الطائفتين قالوا : وأما الذم فانما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح فى القران فلا يطلبون الا المتشابه لافساد القلوب وهى فتنتها به ، ويطلبون تأويله وليس طلبهم لتأويله لاجل العلم والاهتداء بل لاجل الفتنة وكذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر لان قصده بالسوال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة وهذا كمن يورد أسئلة اشكالات على كلام الغير ويقول ماذا أريد بكذا وغرضه التشكيك والطعن فيه ليس غرضه معرفة الحق ، وهولاء هم الذين عناهم النبى ﷺ بقوله اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه وهذا يتبعون أى يطلبون المتشابه ويقصدونه دون المحكم مثل المستتبع للشىء الذى يتحراه ويقصده وهذا فعل من قصده الفتنة وأما من سأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبهة وهو عالم بالمحكم متبع له مومن بالتشابه لايقصد فتنة فهذا لم يذمه الله وهكذا كان الصحابة يقولون رضى الله عنهم مثل الأثر المعروف الذى رواه ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى حدثنا يزيد بن عبد ربه ثنا بقية ثنا عتبة بن أبى حكيم ثنى عمارة بن راشد الكنانى عن زياد عن معاذ بن جبل قال يقرأ القران رجلان فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلى الرأس يلتمس أن يجد فيه أمرا يخرج به على الناس

أولئك شرار أمتهم أولئك يعمى الله عليهم سبل الهدى ورجل يقرؤه ليس فيه هوى ولا نية يفليه فلى الرأس فما تبين له منه عمل به وما اشتبه عليه وكله الى الله ليتفقهن أولئك فقها مافقهه قوم قط حتى لو ان أحدهم مكث عشرين سنة فليبعثن الله له من يبين له الآية التى أشكلت عليه أو يفهمه اياها من قبل نفسه ، قال بقية استهدى ابن عيينة حديث عتبة هذا فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لابد أن يفقهه المتشابه فقها مافقهه قوم قط قالوا والدليل على ذلك ان الصحابة كانوا اذا عرض لاحدهم شبهة فى آية أوحديث سأل عن ذلك كما سأله عمر فقال ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به وسأله أيضا عمر مابالنا نقصر الصلاة وقد أمنا ولما نزل قوله (ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) شق عليهم وقالوا أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم ولما نزل قوله (وان تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) شق عليهم حتى بين لهم الحكمة فى ذلك ، ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم من نوقش الحساب عذب قالت عائشة ألم يقل الله (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) قال انما ذلك العرض قالوا والدليل على ماقلناه اجماع السلف فانهم فسروا جميع القرآن ، وقال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عندها وتلقوا ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم كما قال أبو عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن عن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن الا ماقد يشكل على بعضهم فيقف فيه لا لأن أحدا من الناس لايعلمه لكن لانه هو لم يعلمه ، وايضا فان الله قد أمر بتدبر القران مطلقا

ولم يستثن منه شيئا لايتدبر ولاقال لاتدبروا المتشابه والتدبر بدون الفهم ممتنع ولوكان من القران مالايتدبر لم يعرف فان الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره *

وهذا أيضامما يحتجون به ويقولون المتشابه أمر نسبي اضافى فقديشتبه على هذا مالايشتبه على غيره قالوا لأن الله أخبر أن القران بيان وهدى وشفاء ونور ولم يستثن منه شيئا عن هذا الوصف وهذا ممتنع بدون فهم المعنى قالوا ولأن من العظيم أن يقال ان الله أنزل على نبيه كلاما لم يكن يفهم معناه لاهو ولاجبريل بل وعلى قول هؤلاء كان النبى ﷺ يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم ولم يكن يعرف معنى مايقوله وهذا لايظن بأقل الناس، وأيضا فالكلام انما المقصود به الافهام فاذا لم يقصد به ذلك كان عبثا وباطلا والله تعالى قدنزّه نفسه عن فعل الباطل والعبث فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام نزله على خلقه لايريد به إفهامهم وهذا من أقوى حجج الملحدين *

وأيضافمافى القرآن آية الاوقد تكلم الصحابة والتابعون لهم فى معناها وبينوا ذلك واذا قيل فقد يختلفون فى بعض ذلك قيل كما قد يختلفون فى آيات الأمر والنهى مما اتفق المسلمون على أن الراسخين فى العلم يعلمون معناها وهذا أيضا مما يدل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تفسير المتشابه فان المتشابه قد يكون فى ايات الأمر والنهى كما يكون فى ايات الخبر وتلك مما اتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها فكذلك الأخرى فانه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه الا الله لاملك ولارسول ولاعالم وهذاخلاف اجماع المسلمين فى متشابه الأمر والنهى، وأيضافلفظ التاويل يكون للمحكم كما يكون للمتشابه كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك وهم

يعلمون معنى المحكم فكذلك معنى المتشابه وأى فضيلة فى المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه والمحكم أفضل منه وقد بين معناه لعباده فأى فضيلة فى المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل خطابا ولم يذكر فى القران اية تدل على وقت الساعة ونحن نعلم ان الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها وانما النزاع فى كلام أنزله وأخبر انه هدى وبيان وشفاء وأمر بتدبره، ثم يقال ان منه مالا يعرف معناه الا الله ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذى لا يعرف أحد معناه ولهذا صار كل من أعرض عن ايات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه، ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران وقد احتجوا بقوله انا ونحن وبقوله كلمة منه وروح منه وهذا قد اتفق المسلمون على معرفة معناه فكيف يقال ان المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة ولا الأنبياء ولا أحد من السلف وهو من كلام الله الذى أنزله الينا وأمرنا أن نتدبره ونعقله وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء ونور وليس المراد من الكلام الا معانيه ولولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له وقد قال الحسن ما أنزل الله اية الا وهو يحب أن يعلم فيما ذا أنزلت وماذا عنى بها ومن قال ان سبب نزول الآية سوال اليهود عن حروف المعجم فى ألم بحساب الجمل فهذا نقل باطل أما أولا فلانه من رواية الكلبى وأما ثانيا فهذا قد قيل انهم قالوه فى أول مقدم النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة وسورة ال عمران انما نزل صدرها متاخرا لما قدم وفد نجران بالنقل المستفيض المتواتر وفيها فرض الحج وانما فرض سنة تسع أو عشر لم يفرض فى أول الهجرة باتفاق المسلمين وأما ثالثا فلان حروف المعجم ودلالة الحرف على بقاء هذه الامة ليس هو من تاويل القران الذى استأثر الله بعلمه بل اما أن يقال انه ليس مما أراده الله بكلامه فلا يقال انه انفرد بعلمه بل دعوى دلالة الحروف على

ذلك باطل ، واما أن يقال بل يدل عليه وقد علم بعض الناس مايدل عليه وحينئذ فقد علم الناس ذلك أما دعوى دلالة القران على ذلك وان آحدا لايعلمه فهذا هو الباطل ، وأيضا فاذاكانت الامور العلمية التى أخبرالله بها فى القران لايعرفها الرسول كان هذا من أعظم قدح الملاحدة فيه وكان حجة لما يقولونه من انه كان لايعرف الامور العلمية أوانه كان يعرفها ولم يبينها بل هذا القول يقتضى انه لم يكن يعلمها فان مالا يعلمه الا الله لايعلمه النبى ولا غيره ، وبالجملة فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول ان فى القران ايات لايعلم معناها الرسول ولا غيره نعم قد يكون فى القران ايات لايعلم معناها كثير من العلماء فضلا عن غيرهم وليس ذلك فى اية معينة بل قد يشكل على هذا مايعرفه هذا وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ وتارة لاشتباه المعنى بغيره وتارة لشبهة فى نفس الانسان تمنعه من معرفة الحق وتارة لعدم التدبر التام وتارة لغير ذلك من الاسباب فيجب القطع بان قوله (وما يعلم تاويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به)

أن الصواب قول من يجعله معطوفا ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد أو يكون كلا القولين حقا وهى قراءتان والتاويل المنفى غير التاويل المثبت وان كان الصواب هو قول من يجعلها واو استئناف فيكون التاويل المنفى علمه عن غير الله هو الكيفيات التى لايعلمها غيره وهذا فيه نظر وابن عباس جاء عنه انه قال انا من الراسخين الذين يعلمون تاويله وجاء عنه ان الراسخين لايعلمون تاويله *

وجاء عنه انه قال :التفسير على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لايعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لايعلمه الا الله ومن ادعى علمه فهو كاذب.وهذا القول يجمع القولين ويبين ان العلماء

يعلمون من تفسيره مالا يعلمه غيرهم وان فيه مالا يعلمه الا الله فاما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عند قوله الا الله وجعل التاويل بمعنى التفسير فهذا خطأ قطعا وأما التأويل بالمعنى الثالث وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح فهذا الاصطلاح لم يكن بعد عرف فى عهد الصحابة بل ولا التابعين بل ولا الأئمة الاربعة ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفا فى القرون الثلاثة بل ولا علمت أحدا فيهم خص لفظ التأويل بهذا ولكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعا فى عرف كثير من المتاخرين فظنوا ان التاويل فى الآية هذا معناه صاروا يعتقدون أن لمتشابه القران معانى تخالف مايفهم منه وفرقوا دينهم بعد ذلك وصاروا شيعا والمتشابه المذكور الذى كان سبب نزول الاية لايدل ظاهره على معنى فاسد وانما الخطا فى فهم السامع نعم قد يقال ان مجرد هذا الخطاب لايبين كمال المطلوب ولكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب وبين دلالته على نقيض المطلوب فهذا الثانى هو المنفى بل وليس فى القران مايدل على الباطل البتة كما قد بسط فى موضعه ولكن كثير من الناس يزعم ان لظاهر الاية معنى اما معنى يعتقده واما معنى باطلا فيحتاج الى تاويله ويكون ماقاله باطلا لاتدل الاية على معتقده ولا على المعنى الباطل وهذا كثير جدا وهؤلاء هم الذين يجعلون القران كثيرا مايحتاج الى التاويل المحدث وهو صرف اللفظ عن مدلوله الى خلاف مدلوله * ومما يحتج به من قال الرسخون فى العلم يعلمون التاويل ماثبت فى صحيح البخارى وغيره عن ابن عباس ان النبى ﷺ دعا له وقال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التاويل فقد دعا له بعلم التأويل مطلقا وابن عباس فسر القران كله قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من أوله الى اخره أقفه عند كل اية واسأله عنها وكان يقول انا من الراسخين

فى العلم الذين يعلمون تاويله ،وأيضافالنقول متواترة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تكلم فى جميع معانى القران من الامر والخبر فله من الكلام فى الاسماء والصفات والوعد والوعيد والقصص ومن الكلام فى الامر والنهى والاحكام مايبين انه كان يتكلم فى جميع معانى القران ،وأيضا قد قال ابن مسعود مامن اية فى كتاب الله الا وأنا أعلم فيما ذا أنزلت ،وأيضافانهم متفقون على أن ايات الاحكام يعلم تاويلها وهى نحو خمسمائة اية وسائر القران خبر عن الله وأسمائه وصفاته أوعن اليوم الآخر والجنة والنار أو عن القصص وعاقبة أهل الايمان وعاقبة أهل الكفر فان كان هذا هو المتشابه الذى لايعلم معناه الا الله فجمهور القران لايعرف أحد معناه لا الرسول ولا أحد من الأمة ومعلوم ان هذا مكابرة ظاهرة ،وأيضا فمعلوم أن العلم بتاويل الرويا أصعب من العلم بتاويل الكلام الذى يخبر به فان دلالة الرؤيا على تاويلها دلاله خفية غامضة لايهتدى لها جمهور الناس بخلاف دلالة لفظ الكلام على معناه فاذا كان الله قد علم عباده تاويل الاحاديث التى يرونها فى المنام فلان يعلمهم تاويل الكلام العربى المبين الذى ينزله على أنبيائه بطريق الأولى والأحرى قال يعقوب ليوسف (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الأحاديث) وقال يوسف (رب قد اتيتنى من الملك وعلمتنى من تاويل الأحاديث) وقال (لا ياتيكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتاويله قبل أن ياتيكما) وأيضا فقد ذم الله الكفار بقوله (أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله) وقال (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاءوا قال أكذبتم باياتى ولم تحيطوا بها علما أما ذا كنتم تعملون) وهذا ذم لمن كذب

بمالم يحط بعلمه فما قاله الناس من الاقوال المختلفة فى تفسير القرآن وتاويله ليس لأحد أن يصدق بقول دون قول بلا علم ولا يكذب بشىء منها الا أن يحيط بعلمه وهذا لا يمكن الا اذا عرف الحق الذى أريد بالآية فيعلم أن ماسواه باطل فيكذب بالباطل الذى أحاط بعلمه وأما اذا لم يعرف معناها ولم يحط بشىء منها علما فلا يجوز له التكذيب بشىء منها مع ان الاقوال المتناقضة بعضها باطل قطعا ويكون حينئذ المكذب بالقرآن كالمكذب بالاقوال المتناقضة والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم، وأيضا فانه ان بنى على ما يعتقده من انه لا يعلم معانى الآيات الخبرية الا الله لزمه أن يكذب كل من احتج بآية من القرآن خبرية على شىء من أمور الايمان بالله واليوم الاخر ومن تكلم فى تفسير ذلك وكذلك يلزم مثل ذلك فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وان قال المتشابه هو بعض الخبريات لزمه أن يبين فصلا يتبين به ما يجوز أن يعلم معناه من آيات القرآن ومالا يجوز أن يعلم معناه بحيث لا يجوز أن يعلم معناه لا ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا أحد من الصحابة ولا غيرهم ومعلوم انه لا يمكن أحدا ذكر حد فاصل بين ما يجوز أن يعلم معناه بعض الناس وبين مالا يجوز أن يعلم معناه أحد ولو ذكر ماذكر انتقض عليه فعلم أن المتشابه ليس هو الذى لا يمكن أحدا معرفة معناه وهذا دليل مستقل فى المسئلة ، وأيضا فقوله لم يحيطوا بعلمه وكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ذم لهم على عدم الاحاطة مع التكذيب ولو كان الناس كلهم مشتركين فى عدم الاحاطة بعلم المتشابه لم يكن فى ذمهم بهذا الوصف فائدة ولكان الذم على مجرد التكذيب فان هذا بمنزلة أن يقال أكذبتم بما لم تحيطوا به علما ولا يحيط به علما الا الله ومن كذب بما لا يعلمه الا الله كان أقرب الى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس فلو

لم يحط به علما الراسخون كان ترك هذا الوصف أقرب فى ذمهم من ذكره*

ويتبين هذا بوجه آخر هو دليل فى المسئلة وهو أن الله ذم الزائغين بالجهل وسوء القصد فانهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله ولا يعلم تاويله الا الراسخون فى العلم وليسوا منهم وهم يقصدون الفتنة لا يقصدون العلم والحق وهذا كقوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فان المعنى بقوله اسمعهم أفهمهم القرآن يقول لو علم الله فيهم حسن قصد وقبول للحق لافهمهم القرآن لكن لو أفهمهم لتولوا عن الايمان وقبول الحق لسوء قصدهم فهم جاهلون ظالمون كذلك الذين فى قلوبهم زيغ هم مذمومون بسوء القصد مع طلب علم ماليسوا من أهله وليس اذا عيب هؤلاء على العلم ومنعوه يعاب من حسن قصده وجعله الله من الراسخين فى العلم (فان قيل) فاكثر السلف على أن الراسخين فى العلم لا يعلمون التأويل وكذلك أكثر أهل اللغة يروى هذا عن ابن مسعود وأبى بن كعب وابن عباس وعروة وقتادة وعمر بن عبد العزيز والفراء وأبى عبيد وثعلب وابن الانبارى قال ابن الانبارى فى قراءة عبدالله ان تاويله الا عند الله والراسخون فى العلم وفى قراءة أبى وابن عباس ويقول الراسخون فى العلم قال وقد أنزل الله فى كتابه أشياء استأثر بعلمها كقوله تعالى (قل انما علمها عند الله) وقوله (وقرونا بين ذلك كثيرا) فانزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد ويكفر به الكافر فيشقى قال ابن الانبارى: والذى يروى القول الاخر عن مجاهد هو ابن أبى نجيح ولا تصح روايته التفسير عن مجاهد فيقال قول القائل ان أكثر السلف على هذا قول بلا علم فانه لم يثبت عن أحد من الصحابة انه قال ان الراسخين فى العلم لا يعلمون تاويل المتشابه بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون وماذكر

من قراءة ابن مسعود وأبى بن كعب ليس لها اسناد يعرف حتى يحتج بها والمعروف عن ابن مسعود انه كان يقول ما فى كتاب الله آية الا وأنا أعلم فيما ذا أنزلت وقال أبو عبد عبد الرحمن السلمى ،

حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى ﷺ عشر ايات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل وهذا أمر مشهور رواه الناس عامة أهل الحديث والتفسير وله اسناد معروف بخلاف ما ذكر من قراءتهما وكذلك ابن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول انا من الراسخين الذين يعلمون تاويله وقد صح عن النبى ﷺ أنه دعا له بعلم تاويل الكتاب فكيف لا يعلم التاويل مع أن قراءة عبد الله ان تأويله الا عند الله لا تناقض هذا القول فان نفس التاويل لا ياتى به الا الله كما قال تعالى : (هل ينظرون الا تاويله) وقال (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تاويله) وقد اشتهر عن عامة السلف أن الوعد والوعيد من المتشابه وتاويل ذلك هو مجىء الموعود به وذلك عند الله لا ياتى به الا هو وليس في القرآن ان علم تاويله الا عند الله كما قال فى الساعة (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السموات والارض لا تاتيكم الا بغتة يسئلونك كأنك حفى عنها قل انما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) وكذلك لما قال فرعون لموسى (فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) فلو كانت قراءة ابن مسعود نفى العلم عن الراسخين لكانت ان علم تاويله الا عند الله لم يقرأ ان تاويله الا عند الله فان هذا حق بلا نزاع وأما القراءة الاخرى

المروية عن أبى وابن عباس فقد نقل عن ابن عباس ماينافضه وأخص أصحابه بالتفسير مجاهد ، وعلى تفسير مجاهد يعتمد أكثر الأئمة كالثورى والشافعى وأحمد بن حنبل والبخارى قال الثورى اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به والشافعى فى كتبه أكثر الذى ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وكذلك البخارى فى صحيحه يعتمد على هذا التفسير وقول القائل لاتصح رواية ابن أبى نجيح عن مجاهد جوابه أن تفسير ابن أبى نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير بل ليس بأيدى أهل التفسير كتاب فى التفسير أصح من تفسير ابن أبى نجيح عن مجاهد الا أن يكون نظيره فى الصحة ثم معه مايصدقه وهو قوله عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية وأساله عنها ، وأيضا فابى بن كعب رضى الله عنه قد عرف انه كان يفسر ماتشابه من القرآن كما فسر قوله (فارسلنا اليها روحنا) وفسر قوله (الله نور السموات والارض) وقوله (واذ أخذ ربك) ونقل ذلك معروف عنه بالاسناد أثبت من نقل هذه القراءة التى لايعرف لها اسناد وقد كان يسئل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما ساله عمر ، وسئل عن ليلة القدر *

وأما قوله ان الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن فيقال هذا حق لكن هل فى الكتاب والسنة أو قول أحد من السلف ان الأنبياء والملائكة والصحابة لايفهمون ذلك الكلام المجمل أم العلماء متفقون على أن المجمل فى القرآن يفهم معناه ويعرف مافيه من الاجمال كما مثل به من وقت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذى أخبر الله به عن الساعة وانها آتية لامحالة وان الله انفرد بعلم وقتها فلم يطلع على ذلك أحدا ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لما ساله السائل عن الساعة وهو فى الظاهر أعرابى لايعرف

قال له متى الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولم يقل ان الكلام الذى نزل فى ذكرها لا يفهمه أحد بل هذا خلاف اجماع المسلمين بل والعقلاء فان أخبار الله عن الساعة وأشراطها كلام بين واضح يفهم معناه وكذلك قوله (وقرونا بين ذلك كثيرا) قد علم المراد بهذا الخطاب وان الله خاق قرونا كثيرة لايعلم عددهم الا الله كما قال (ومايعلم جنود ربك الا هو) فأى شىء من هذا مما يدل على أن ماأخبر الله به من أمر الايمان بالله واليوم الآخر لايفهم معناه أحد لا من الملائكة والأنبياء ولا الصحابة ولا غيرهم وأما ماذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقه انه كان لايفسر عامة اى القران الا ايات قليلة رواها عن عائشة ومعلوم أنه اذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم انه لايعرفه غيره من الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة كابن مسعود وأبىّ بن كعب وابن عباس وغيرهم ، وأما اللغويون الذين يقولون ان الراسخين لايعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون فى ذلك فان هؤلاء كلهم يتكلمون فى تفسير كل شىء فى القرآن ويتوسعون فى القول فى ذلك حتى مامنهم أحد الاوقد قال فى ذلك أقوالا لم يسبق اليها وهى خطأ وابن الانبارى الذى بالغ فى نصر ذلك القول هو من أكثر الناس كلاما في معانى الآى المتشابهات يذكر فيها من الأقوال مالم ينقل عن أحد من السلف ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة وهو قصده بذلك الانكار على ابن قتيبة وليس هو أعلم بمعانى القران والحديث واتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه فى ذلك وان كان ابن الانبارى من أحفظ الناس للغة لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة وقد نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبى عبيد أشياء من تفسير غريب الحديث وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك وسلك فى ذلك مسلك أمثاله

من أهل العلم وهو وأمثاله يصيبون تارة ويخطئون أخرى فان كان المتشابه لايعلم معناه الا الله فهم كلهم يجترئون على الله يتكلمون فى شىء لاسبيل الى معرفته وان كان مايبينوه من معانى المتشابه قد أصابوا فيه ولو فى كلمة واحدة ظهر خطأهم فى قولهم ان المتشابه لايعلم معناه الا الله ولا يعلمه أحد من المخلوقين فليختر من ينصر قولهم هذا أوهذا ، ومعلوم أنهم أصابوا فى شىء كثير مما ينصرون به المتشابه وأخطؤا فى بعض ذلك فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقينى فانهم أصابوا فى كثير من تفسير المتشابه ، وكذلك مانقل عن قتادة من أن الراسخين فى العلم لايعلمون تاويل المتشابه فكتابه فى التفسير من اشهر الكتب ونقله ثابت عنه من رواية معمر عنه ورواية سعيد بن أبى عروبة عنه ولهذا كان المصنفون فى التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل ومع هذا يفسر القرآن كله محكمه ومتشابهه ، والذى اقتضى شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لايعلم تاويله الا الله ظهور التاويلات الباطلة من أهل البدع والجهمية والقدرية من المعتزلة وغيرهم فصار أولئك يتكامون فى تاويل القرآن برأيهم الفاسد وهذا أصل معروف لأهل البدع أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلى وتاويلهم اللغوى فتفاسير المعتزلة مملوأة بتاويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ما أراد الله ورسوله فانكار السلف والأئمة لهذه التاويلات الفاسدة كما قال الامام أحمد فى ما كتبه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شككت فيه من متشابه القرآن وتأولته على على غير تاويله فهذا الذى أنكره السلف والأئمة من التاويل فجاء بعدهم قوم انتسبوا الى السنة بغير خبرة تامة بها وبما يخالفها وظنوا ان المتشابه لايعلم معناه الا الله فظنوا أن معنى التاويل هو معناه فى اصطلاح المتاخرين

وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى المرجوح فصاروا فى موضع يقولون وينصرون ان المتشابه لايعلم معناه الا الله ثم يتناقضون فى ذلك من وجوه ، أحدها أنهم يقولون النصوص تجرى على ظواهرها ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها ولهذا يبطلون كل تاويل يخالف الظاهر ويقررون المعنى الظاهر ويقولون مع هذا أن له تأويلا لايعلمه الا الله والتاويل عندهم مايناقض الظاهر فكيف يكون له تاويل يخالف الظاهر وقد قرر معناه الظاهر وهذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ابن عقيل على شيخه القاضى أبى يعلى ، ومنها انا وجدنا هؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بنص يخالف قولهم لافى مسألة أصلية ولافرعية الا تأولوا ذلك النص بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات الجهمية والقدرية التى تخالفهم ، فأين هذا من قولهم لايعلم معانى النصوص المتشابهة الا الله واعتبر هذا مما تجده فى كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة على قولهم بالآيات التى تناقض قول هؤلاء مثل أن يحتجوا بقوله (والله لايحب الفساد) (ولا يرضى لعباده الكفر) (وماخلقت الجن والانس الاليعبدون) (لاتدركه الأبصار) (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (واذقال ربك للملائكة) ونحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد وان كان فى بعضها حق فان كان ماتأولوه حقا دل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تاويل المتشابه فظهر تناقضهم وان كان باطلا فذلك أبعد لهم .

وهذا أحمد بن حنبل امام أهل السنة الصابر فى المحنة الذى قد صار للمسلمين معيارا يفرقون به بين أهل السنة والبدعة لما صنف كتابه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القران وتاولته على غير تاويله تكلم فى معانى المتشابه الذى اتبعه الزائغون ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله آية آية وبين

معناها وفسرها ليبين فساد تأويل الزائغين واحتج على ان الله يرى وان القرآن غير مخلوق وان الله فوق العرش بالحجج العقلية والسمعية ورد مااحتج به النفاة من الحجج العقلية والسمعية وبين معانى الآيات التى سماها هو متشابهة وفسرها آية آية وكذلك لما ناظروه واحتجوا عليه بالنصوص جعل يفسرها آية آيه وحديثا حديثا ويبين فساد ماتأولها عليه الزائغون ويبين هو معناها ولم يقل أحد ان هذه الآيات والاحاديث لايفهم معناها الا الله ولا قال أحد له ذلك بل الطوائف كلها مجتمعة على امكان معرفة معناها لكن يتنازعون فى المراد كما يتنازعون فى آيات الأمر والنهى وكذلك تفسير المتشابه من الآيات والاحاديث التى يحتج بها الزائغون من الخوارج وغيرهم كقوله «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولايشرب الشارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن» وأمثال ذلك *

ويبطل قول المرجئة والجهمية وقول الخوارج والمعتزلة وكل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها ولم يقل أحد لامن أهل السنة ولامن هؤلاء لما يستدل به هو أويستدل به عليه منازعه هذه آيات وأحاديث لايعلم معناها أحد من البشر فامسكوا عن الاستدلال بها وكان الامام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلال بسنة رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين الذين بلغهم الصحابة معانى القرآن كما بلغوهم ألفاظه ونقلوا هذا كما نقلوا هذا لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ويدعون أن هذا هو التأويل الذى يعلمه الراسخون وهم مبطلون فى ذلك لاسيما تأويلات القرامطة والباطنية الملاحدة وكذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية

والقدرية وغيرهم ولكن هؤلاء يعترفون بانهم لايعلمون التاويل وانما غايتهم أن يقولوا ظاهر هذه الآية غير مراد ولكن يحتمل أن يراد كذا وأن يراد كذا ولو تاولها الواحد منهم بتاويل معين فهو لايعلم أنه مراد الله ورسوله بل يجوز أن يكون مراد الله ورسوله عندهم غير ذلك كالتاويلات التي يذكرونها في نصوص الكتاب كما يذكرونه في قوله (وجاء ربك والملك صفا صفا) وينزل ربنا (والرحمن على العرش استوى) (وكلم الله موسى تكليما) وغضب الله عليهم (وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وأمثال ذلك من النصوص فان غاية ماعندهم يحتمل أن يراد به كذا ويجوز كذا ونحو ذلك وليس هذا علما بالتاويل وكذلك كل من ذكر في نص أقوالا واحتمالات ولم يعرف المراد فانه لم يعرف تفسير ذلك وتاويله وانما يعرف ذلك من عرف المراد ومن زعم من الملاحدة أن الادلة السمعية لاتفيد العلم فمضمون مدلولاته لايعلم أحد تفسير المحكم ولاتفسير المتشابه ولاتاويل ذلك وهذا اقرار منه على نفسه بانه ليس من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه فضلا عن تأويل المحكم فاذا انضم الى ذلك أن يكون كلامهم في العقليات فيه من السفسطة والتلبيس مالايكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لامعرفة بالسمعيات ولابالعقليات وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا (لوكنا نسمع أونعقل ما كنا في أصحاب السعير) ومدح الذين اذا ذكروا بآياته لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يفقهون ويعقلون وذم الذين لايفقهون ولايعقلون في غير موضع من كتابه وأهل البدع المخالفون للكتاب والسنة يدعون العلم والعرفان والتحقيق وهم من أجهل الناس بالسمعيات والعقليات وهم يجعلون ألفاظهم بجملة متشابهة تتضمن حقا وباطلا يجعلونها هي الاصول المحكمة ويجعلون ماعارضها من

نصوص الكتاب والسنة من المتشابه الذى لايعلم معناه عندهم الا الله وما يتأولونه بالاحتمالات لايفيد فيجعلون البراهين شبهات والشبهات براهين كما قد بسط ذلك فى موضع آخر ، وقد نقل القاضى أبو يعلى عن الامام أحمد انه قال المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج الى بيان والمتشابه ما احتاج الى بيان ، وكذلك قال الامام أحمد فى رواية وعن الشافعى قال المحكم مالا يحتمل من التاويل الا وجها واحدا والمتشابه ما احتمل من التاويل وجوها وكذلك قال الامام أحمد وكذلك قال ابن الانبارى المحكم مالم يحتمل من التاويل الا وجها واحدا والمتشابه الذى تعتوره التاويلات فيقال حينئذ لجميع الأمة سلفها وخلفها يتكلمون فى معانى القران التى تحتمل التاويلات وهؤلاء الذين ينصرون ان الراسخين فى العلم لايعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاما فيه *

والأئمة كالشافعى وأحمد ومن قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معانى ويرجحون بعضها على بعض بالأدلة فى جميع مسائل العلم الاصولية والفروعية لايعرف عن عالم من علماء المسلمين أنه قال عن نص احتج به محتج فى مسألة ان هذا لايعرف أحد معناه فلا يحتج به ولو قال أحد ذلك لقيل له مثل ذلك واذا ادعى فى مسائل النزاع المشهورة بين الائمة ان نصه محكم يعلم معناه وان النص الآخر متشابه لايعلم أحد معناه قوبل بمثل هذه الدعوى وهذا بخلاف قول القائل ان من النصوص مامعناه جلى واضح ظاهر لايحتمل الا وجها واحدا لايقع فيه اشتباه ، ومنها ما فيه خفاء واشتباه يعرف معناه الراسخون فى العلم فان هذا مستقيم صحيح ، وحينئذ فالخلف فى المتشابه يدل على انه كله يعرف معناه فمن قال انه يعرف معناه يبين حجة على ذلك وأيضا فما ذكره السلف والخلف فى المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه

ممن قال: ان المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف وهذا القول ماثور عن ابن مسعود. وابن عباس وقتادة. والسدى وغيرهم، وابن مسعود وابن عباس وقتادة هم الذين نقل عنهم ان الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويله ومعلوم قطعا باتفاق المسلمين ان الراسخين يعلمون معنى المنسوح فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل ويدل على أنه كذب ان كان هذا صدقا والا تعارض النقلان عنهم والمتواتر عنهم ان الراسخين يعلمون معنى المتشابه والقول الثانى ماثور عن جابر بن عبد الله أنه قال المحكم ما علم العلماء تأويله والمتشابه مالم يكن للعلماء الى معرفته سبيل كقيام الساعة، ومعلوم أن وقت قيام الساعة مما اتفق المسلمون على أنه لا يعلمه الا الله فاذا أريد بلفظ التاويل هذا كان المراد به لا يعلم وقت تاويله الا الله وهذا حق ولا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك وكذلك ان أريد بالتاويل حقائق ما يوجد وقيل لا يعلم كيفية ذلك الا الله فهذا قد قدمناه وذكر أنه على قول هؤلاء من وقف عند قوله (وما يعلم تاويله الا الله) هو الذى يجب أن يراد بالتاويل وأما أن يراد بالتاويل التفسير ومعرفة المعنى ويقف على قوله الا الله فهذا خطا قطعا مخالف للكتاب والسنة واجماع المسلمين.

ومن قال ذلك من المتاخرين فانه متناقض يقول ذلك ويقول ما يناقضه وهذا القول يناقض الايمان بالله ورسوله من وجوه كثيرة ويوجب القدح فى الرسالة ولاريب أن الذى قالوه لم يتدبروا لوازمه وحقيقة ما اطلقوه وكان أكبر قصدهم دفع تاويلات أهل البدع المتشابهة وهذا الذى قصدوه حق وكل مسلم يوافقهم عليه لكن لا ندفع باطلا بباطل آخر ولا نرد بدعة ببدعة ولا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بان يقال الرسول والصحابة كانوا لا يعرفون تفسير ما تشابه من القران فى هذا من الظن فى

الرسول وسلف الأمة ماقد يكون أعظم من خطأ طائفة فى تفسير بعض الآيات والعاقل لايبنى قصرا ويهدم مصرا *

والقول الثالث أن المتشابه الحروف المقطعة فى اوائل السور يروى هذا عن ابن عباس ، وعلى هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الاسمية والفعلية وانما هى أسماء موقوفة ولهذا لم تعرب فان الاعراب انما يكون بعد العقد والتركيب وانما نطق بها موقوفة كما يقال : ا ب ت ولهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الاسم الذى ينطق به فانها فى النطق أسماء ولهذا لما سال الخليل أصحابه عن النطق بالزاى من زيد قالوا زا قال نطقتم بالاسم وانما النطق بالحرف زه فهى فى اللفظ أسماء وفى الخط حروف مقطعة الم لا تكتب الف لام ميم كما يكتب قول النبى ﷺ من قرأ القرآن فاعربه فله بكل حرف عشر حسنات اما انى لاأقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف ، والحرف فى لغة الرسول وأصحابه يتناول الذى يسميه النحاة اسما وفعلا وحرفا ولهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولافعل فانه لما كان معروفا من اللغة أن الاسم حرف والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذى يطلق النحاة عليه الحرف انه جاء لمعنى ليس باسم ولافعل ، وهذه حروف المعانى التى يتالف منها الكلام وأما حروف الهجاء فتلك انما تكتب فى صورة الحرف المجرد وينطق بها غير معربة ولا يقال فيها معرب ولا مبنى لان ذلك انما يقال فى المؤلف ، فاذا كان على هذا القول كل ماسوى هذه محكم حصل المقصود فانه ليس المقصود الا معرفة كلام الله وكلام رسوله ، ثم يقال هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس فان كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وان لم يكن

معروفا وهو المتشابه كان ماسواها معلوم المعنى وهذا المطلوب ، وأيضا فان الله تعالى قال (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء وانما يعدها آيات الكوفيون *

وسبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابه ولكن هذا القول يوافق مانقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء ، والرابع أن المتشابه مااشتبهت معانيه قاله مجاهد وهذا يوافق قول أكثر العلماء وكلهم يتكلم فى تفسير هذا المتشابه ويبين معناه والخامس أن المتشابه ماتكررت ألفاظه قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المحكم ماذكر الله فى كتابه من قصص الانبياء ففصله وبينه والمتشابه هو مااختلفت ألفاظه فى قصصهم عند التكرير كما قال فى موضع من قصة نوح (احمل فيها) وقال فى موضع آخر (اسلك فيها) وقال فى عصا موسى فاذا هى حية تسعى وفى موضع فاذا هى ثعبان مبين، وصاحب هذا القول جعل المتشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ وقد صنف بعضهم فى هذا المتشابه لان القصة الواحدة يتشابه معناها فى الموضعين فاشتبه على القارىء أحد اللفظين بالآخر وهذا التشابه لاينفى معرفة المعانى بلاريب ولايقال فى مثل هذا أن الراسخين يختصون بعلم تأويله فهذا القول ان كان صحيحا كان حجة لنا وان كان ضعيفا لم يضرنا . والسادس انه مااحتاج الى بيان كما نقل عن أحمد ، والسابع انه مااحتمل وجوها كما نقل عن الشافعى وأحمد وقد نقل عن أبى الدرداء رضى الله عنه انه قال انك لاتفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها وقد صنف الناس كتب الوجوه والنظائر فالنظائر اللفظ الذى اتفق معناه فى الموضعين وأكثر والوجوه الذى اختلف معناه كما يقال الاسماء المتواطئة والمشتركة وان كان بينهما فرق لبسطه موضع آخر

وقد قيل: هى نظائر فى اللفظ ومعانيها مختلفة فتكون كالمشتركة وليس كذلك بل الصواب أن المراد بالوجوه والنظائر هو الأول (وقد تكلم المسلمون) سلفهم وخلفهم فى معانى الوجوه وفيما يحتاج الى بيان وما يحتمل وجوها فعلم يقينا أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه واعلم أن من قال أن من القران كلاما لا يفهم أحد معناه ولا يعرف معناه الا الله فانه مخالف لاجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة، والثامن أن المتشابه هو القصص والامثال وهذا أيضا يعرف معناه، والتاسع أنه مايؤمن به ولا يعمل به وهذا أيضا مما يعرف معناه، والعاشر قول بعض المتاخرين أن المتشابه آيات الصفات وأحاديث الصفات وهذا أيضا مما يعلم معناه فان أكثر ايات الصفات اتفق المسلمون على أنه يعرف معناها والبعض الذى تنازع الناس فى معناه انما ذم السلف منه تاويلات الجهمية ونفوا علم الناس بكيفيته كقول مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول وكذلك قال سائر أئمة السنة وحينئذ ففرق بين المعنى المعلوم وبين الكيف المجهول فان سمى الكيف تاويلا ساغ أن يقال: هذا التاويل لا يعلمه الا الله كما قدمناه أولا، وأما اذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تاويلا كما يجعل معرفة سائر ايات القران تاويلا، وقيل ان النبى ﷺ وجبريل والصحابة والتابعين ماكانوا يعرفون معنى قوله (الرحمن على العرش استوى) ولا يعرفون معنى قوله: (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) ولا معنى قوله: (غضب الله عليهم) بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمى الذى لا يفهمه العربى وكذلك اذا قيل كان عندهم قوله تعالى (وماقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقوله (لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار) وقوله (وكان سميعا بصيرا) وقوله (رضى الله

عنهم ورضوا عنه) وقوله : (ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه) وقوله : (وأحسنوا ان الله يحب المحسنين) وقوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقوله : (انا جعلناه قرآنا عربيا) وقوله : (فأجره حتى يسمع كلام الله) وقوله : (فلما أتاها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها) وقوله : (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) وقوله: (وجاء ربك والملك صفا صفا هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك - ثم استوى الى السماء وهى دخان - انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) الى امثال هذه الآيات ، فمن قال عن جبريل ومحمد صلوات الله عليهما وعن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين والجماعة أنهم كانوا لايعرفون شيئا من معانى هذه الآيات بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة وانما كانوا يقرؤن ألفاظا لايفهمون لها معنى كما يقرأ الانسان كلاما لايفهم منه شيئا فقد كذب على القوم والنقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا وانهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن وان كان كنه الرب عز وجل لايحيط به العباد ولايحصون ثناء عليه فذاك لايمنع أن يعلموا من اسمائه وصفاته ماعلمهم سبحانه وتعالى كما أنهم اذا علموا أنه بكل شىء عليم وأنه على كل شىء قدير لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه وقدرته واذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته.

وهذا مما يستدل به على أن الراسخين يعلمون التأويل فان الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ومعلوم أنهم لايعرفون كيفية ماأخبر الله به عن نفسه فى الآيات المحكمات فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لاينفى العلم بالتأويل الذى هو تفسير الكلام وبيان معناه بل يعلمون تأويل المحكم والمتشابه

ولا يعرفون كيفية الرب لا فى هذا ولا فى هذا ، فان قيل هذا يقدح فيما ذكرتم
من الفرق بين التأويل الذى يراد به التفسير وبين التأويل الذى فى كتاب
الله تعالى قيل لا يقدح فى ذلك فان معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور
ذلك فى القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة فى الخارج المرادة بذلك الكلام
فان الشىء له وجود فى الأعيان ووجود فى الأذهان ووجود فى اللسان
ووجود فى البيان ، فالكلام لفظ له معنى فى القلب ويكتب ذلك اللفظ
بالخط فاذا عرف الكلام وتصور معناه فى القلب وعبر عنه باللسان فهذا
غير الحقيقة الموجودة فى الخارج وليس كل من عرف الاول عرف عين
الثانى مثال ذلك أن اهل الكتاب يعلمون ما فى كتبهم من صفة محمد ﷺ
وخبره ونعته وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره وتأويل ذلك هو
نفس محمد المبعوث فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام وكذلك
الانسان قد يعرف الحج والمشاعر كالبيت والمساجد ومنى وعرفة ومزدلفة
ويفهم معنى ذلك ولا يعرف الأمكنة حتى يشاهدها فيعرف أن الكعبة
المشاهدة المذكورة فى قوله : (ولله على الناس حج البيت) وكذلك أرض
عرفات هى المذكورة فى قوله: (فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله)
وكذلك المشعر الحرام هى المزدلفة التى بين مأزمى عرفة ووادى محسر
يعرف أنها المذكورة فى قوله : (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وكذلك
الرؤيا يراها الرجل ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره مثل أن
يقول هذا يدل على أنه كان كذا ويكون كذا وكذا ثم اذا كان ذلك
فهو تأويل الرؤيا ليس تاويلها نفس علمه وتصوره وكلامه ولهذا قال
يوسف الصديق (هذا تأويل رؤياى من قبل) وقال: (لا يأتيكما طعام
ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن

يأتى التأويل وان كان التأويل لم يقع بعد وان كان لا يعرف متى يقع فنحن نعلم تاويل ماذكر الله فى القرآن من الوعد والوعيد وان كنا لانعرف متى يقع هذا التأويل المذكور فى قوله سبحانه وتعالى : (هل ينظرون الا تاويله يوم ياتى تاويله) الآية ، وقال تعالى: (لكل نبأ مستقر) فنحن نعلم مستقر نبأ الله وهو الحقيقة التى أخبر الله بها ولا نعلم متى يكون وقد لا نعلم كيفيتها وقدرها وسواء فى هذا تاويل المحكم والمتشابه كما قال الله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أومن تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض) قال النبى ﷺ انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد فقد عرف تأويلها وهو وقوع الاختلاف والفتن وان لم يعرف متى يقع وقد لا يعرف صفته ولا حقيقته فاذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذى دلت عليه الآية وغيره قد لا يعرف ذلك أو ينساه بعد ما كان عرفه فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن فانه لما نزل قوله تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال الزبير: لقد قرأناهذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها واذا نحن المعنيون بها (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وأيضا فان الله قد ذم فى كتابه من يسمع القرآن ولا يفقه معناه وذم من لم يتدبره ومدح من يسمعه و يفقهه فقال تعالى : (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك) الآية فاخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم ماذا قال الرسول فى هذا الوقت المتقدم فدل على أن أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معانى كلام رسول الله ﷺ مالا يعرفه غيرهم وهؤلاء هم الراسخون فى العلم الذين يعلمون معانى القرآن محكمه ومتشابهه وهذا كقوله تعالى: (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) فدل على ان العالمين يعقلونها وان كان غيرهم لا يعقلها *

والامثال هى ما يمثل به من المتشابه وعقل معناها وهو معرفة تاويلها الذى يعرفه الراسخون فى العلم دون غيرهم ويشبه هذا قوله تعالى: (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد) فلولا أنهم عرفوا معنى ماأنزل كيف عرفوا انه حق أو باطل وهل يحكم على كلام لم يتصور معناه انه حق أو باطل ، وقال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقال: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال تعالى: (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يات آباءهم الاولين) وقال تعالى (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) وقال (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال: (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وقال: (كتاب فصلت آياته قرءانا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا) الى قوله: (ومن بيننا وبينك حجاب) فاذا كان كثير من القران أو أكثره مما لا يفهم أحد معناه لم يكن المتدبر المعقول الا بعضه وهذا خلاف مادل عليه القرآن لاسيما عامة ماكان المشركون ينكرونه الآيات الخبرية والأخبار عن اليوم الآخر أو الجنة والنار وعن نفى الشركاء والأولاد عن الله وتسميته بالرحمن فكان عامة انكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيا وإثباتا وما يخبرهم به عن اليوم الآخر وقد ذم الله من لا يعقل ذلك ولا يفقهه ولا يتدبره *

فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك وتدبره وقد قال تعالى (ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) وقال (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) الآية وقال تعالى (واذا قرأت

القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) الآية وقد استدل بعضهم بان الله لم ينف عن غيره علم شيء الا كان منفردا به كقوله: (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله) وقوله: (لا يجليها لوقتها الا هو) وقوله: (وما يعلم جنود ربك الا هو) فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفى فان كان مما استأثر الله به قيل فيه ذلك وان كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله: (ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) وقوله: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الى قوله: (رصدا) وقوله: (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وقوله: (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) وقوله: (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه) الى قوله: (شهيدا) وقوله: (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) وقال للملائكة (انى أعلم مالا تعلمون) وقالت الملائكة (لا علم لنا الا ما علمتنا) وفى كثير من كلام الصحابة الله ورسوله أعلم وفى الحديث المشهور أسالك بكل اسم هولك سميت به نفسك وانزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك وقد قال تعالى: (فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول) وأول النزاع النزاع فى معانى القرآن فان لم يكن الرسول عالما بمعانيه امتنع الرد اليه وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عن مجمله وانها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر، وقال تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الى قوله (فيما اختلفوا فيه) ومن أعظم الاختلاف الاختلاف فى المسائل العلمية الخبرية المتعلقة بالايمان بالله واليوم الآخر فلابد أن يكون الكتاب

حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيه من ذلك ويمتنع أن يكون حاكما ان لم يكن معرفة معناه ممكنا وقد نصب الله عليه دليلا والا فالحاكم الذى لا يتبين مافى نفسه لا يحكم بشيء و كذلك اذا قيل هو الحاكم بالكتاب فان حكمه فصل يفصل به بين الحق والباطل وهذا انما يكون بالبيان وقد قال تعالى فى القرآن : (انه لقول فصل) اى فاصل يفصل بين الحق والباطل فكيف يكون فصلا اذا لم يكن الى معرفة معناه سبيل ، وأيضا فان الله قال (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون) فذم هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب الا أمانى كما ذم الذين يحرفون معناه ويكذبون فقال تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) الى قوله : (أفلا تعقلون) فهذا أحد الصنفين ثم قال تعالى : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى أى تلاوة وان هم الا يظنون) ثم ذم الذين يفترون كذبا يقولون هى من عند الله وما هى من عند الله فقال : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) الى قوله : (يكسبون) *

وهذه الاصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع فان أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان ، أحدهما عالم بالحق يتعمد خلافه والثانى جاهل متبع لغيره فالاولون يبتدعون مايخالف كتاب الله ويقولون هو من عند الله اما أحاديث مفتريات واما تفسير وتأويل للنصوص باطل ويعضدون ذلك بما يدعون من الرأى والعقل وقصدهم بذلك الرياسة والمآكل فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك وهؤلاء اذا عورضوا بنصوص الكتب الالهية وقيل لهم هذه تخالفكم حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة قال الله تعالى : (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق

منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) *

واما النوع الثانى الجهال فهؤلاء الاميون الذين لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون فعن ابن عباس وقتادة فى قوله (ومنهم أميون) أى غير عارفين بمعانى الكتاب يعلمونها حفظا وقراءة بلا فهم ولا يدرون مافيه وقوله الا أمانى أى تلاوة فهم لا يعلمون فقه الكتاب انما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم قاله الكسائى والزجاج وكذلك قال ابن السائب لا يحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته الا أمانى إلا ما يحدثهم به علماؤهم، وقال أبو روق وأبو عبيدة أى تلاوة وقراءة عن ظهر القلب ولا يقرؤنها فى الكتب، ففى هذا القول جعل الأمانى التى هى التلاوة تلاوة الاميين أنفسهم وفى ذلك جعله ما يسمعونه من تلاوة علمائهم وكلا القولين حق والآية تعمهما فانه سبحانه وتعالى قال: لا يعلمون الكتاب لم يقل لا يقرؤن ولا يسمعون ثم قال: الا أمانى وهذا استثناء منقطع لكن يعلمون أمانى اما بقراءتهم لها واما بسماعهم قراءة غيرهم وان جعل الاستثناء متصلا كان التقدير لا يعلمون الكتاب الاعلم أمانى لاعلم تلاوة فقط بلا فهم، والامانى جمع أمنية وهى التلاوة ومنه قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) قال الشاعر *

تمنى كتاب الله أول ليلة   وآخرها لاقى حمام المقادر

والأميون نسبة الى الأمة قال بعضهم الى الأمة وما عليه العامة فمعنى الأمى العامى الذى لا تمييز له، وقد قال الزجاج هو على خلق الأمة التى لم تتعلم فهو على جبلته، وقال غيره هو نسبة الى الأمة لأن الكتابة كانت فى الرجال دون النساء ولأنه على ماولدته أمه والصواب انه نسبة الى أمة كما يقال عامى نسبة الى العامة التى لم تتميز عن عامة بما تمتاز به الخاصة وكذلك

هذا لم يتميز عن الامة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة ويقال الامى لمن لايقرأ ولايكتب كتابا ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرؤنه وان كان قد يكتب ويقرأ مالم ينزل وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين فانه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله قال الله تعالى: (وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا) وقال (هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم) وقد كان فى العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب وكلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لايقرؤن كتابا من حفظهم بل هم يقرؤن القرآن من حفظهم وأناجيلهم فى صدورهم لكن بقوا أميين باعتبار انهم لايحتاجون الى كتابة دينهم بل قرآنهم محفوظ فى قلوبهم كما فى الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم «انه قال خلقت عبادى حنفاء - وقال فيه - انى مبتليك ومبتل بك وأنزلت عليك كتابا لايغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا» فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لايحفظون كتبهم فى قلوبهم بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظا فى قلوب الامة وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه كما فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «انا أمة أمية لانحسب ولانكتب الشهر هكذا وهكذا» فلم يقل لانقرأ كتابا ولانحفظ بل قال لانكتب ولانحسب فديننا لايحتاج أن يكتب ويحسب كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم ولهذا يوجد أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه» وقوله (فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى) هو أمى بهذا الاعتبار لأنه لايكتب ولايقرأ مافى الكتب لاباعتبار

انه لايقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ ، والأمى فى اصطلاح الفقهاء خلاف القارى. ليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول ويعنون به فى الغالب من لايحسن الفاتحة فقوله تعالى: (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الاأمانى) أى لايعلمون الكتاب الاتلاوة ولايفهمون معناها وهذا يتناول من لايحسن الكتابة ولا القراءة من قبله وانما يسمع أمانى علما كما قال ابن السائب ويتناول من يقرأه عن ظهر قلبه ولايقرأه من الكتاب كما قال أبو روق. وأبو عبيدة ، وقد يقال ان قوله لايعلمون الكتاب أى الخط أى لايحسنون الخط وانما يحسنون التلاوة ، ويتناول أيضا من يحسن الخط ولايفهم مايقرأه ويكتبه لما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معانى الكتاب يعلمونها حفظا وقراءة بلافهم ولا يدرون مافيه ، والكتاب هذا المراد به الكتاب المنزل وهو التوراة ليس المراد به الخط فانه قال وأن هم الايظنون فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعانى الكتاب والافكون الرجل لايكتب بيده لايستلزم أن يكون لاعلم عنده بل يظن ظنا بل كثير ممن يكتب بيده لايفهم مايكتب وكثير ممن لايكتب يكون عالما يعلم مايكتبه غيره، وأيضا فان الله ذكر هذا فى سياق الذم لهم وليس فى كون الرجل لايخط ذم اذا قام بالواجب وانما الذم على كونه لايعقل الكتاب الذى أنزل اليه سواء كتبه وقرأه أولم يكتبه ولم يقرأه كما قال النبى ﷺ «هذا أوان يرفع العلم فقال له زياد بن لبيد كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن فو الله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا فقال له ان كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة اوليست التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغنى عنهم» وهو حديث معروف رواه الترمذى وغيره ، ولأنه قال تعالى قبل هذا (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) فأولئك

عقلوه ثم حرفوه وهم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبونه ويقرؤنه حفظا وكتابة أولم يكونوا كذلك فكان من المناسب أن يذكر الذين لايعقلونه وهم الذين لايعلمونه الا أمانى فان القرآن أنزله الله كتابا متشابها مثانى ويذكر فيه الاقسام والامثال فيستوعب الاقسام فيكون مثانى ويذكر الامثال فيكون متشابها وهولاء وان كانوا يكتبون ويقرؤن فهم أميون من أهل الكتاب كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمى وساذج وعامى وان كان يحفظ القران ويقرأ المكتوب اذا كان لايعرف معناه ٭

واذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لايعرفون الكتاب الاتلاوة دون فهم معانيه كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون دل على أن كلا النوعين مذموم، الجاهل الذى لايفهم معانى النصوص والكاذب الذى يحرف الكلم عن مواضعه ويتكلم برأيه ويؤله بما يضيفه الى الله فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله ويجعلون تلك المقالات التى ابتدعوها هى مقالة الحق وهى التى جاء بها الرسول والتى كان عليها السلف ونحو ذلك ثم يعرفون النصوص التى تعارضها فهؤلاء اذا تعمدوا ذلك وعلموا أن الذى يفعلونه مخالف للرسول فهم من جنس هولاء اليهود وهذا يوجد فى كثير من الملاحدة ويوجد فى بعض الأشياء فى غيرهم ، وأما الذين قصدهم اتباع الرسول باطنا وظاهرا وغلطوا فيما كتبوه وتأولوه فهولاء ليسوا من جنسهم لكن وقع بسبب غلطهم ماهو من جنس ذلك الباطل كما قيل اذا زل العالم زل بزلته عالم وهذا حال المتأولين من هذه الأمة وأما رجل مقلد أمى لايعرف من الكتاب الا مايسمعه منهم أو مايتلوه هو ولايعرف الا أمانى وقد ذمه الله على ذلك فعلم أن ذم الله الذين لايعرفون معانى القرآن ولا يتدبرونه ولا يعقلونه

كما صرح القرآن بذمهم فى غير موضع فيمتنع مع هذا أن يقال أن أكثر القرآن أو كثيرا منه لا يعلمه أحد من الخلق الا أمانى لا جبريل ولا محمد ولا الصحابة ولا أحد من المسلمين فان هذا تشبيه لهم بهولاء فيما ذمهم الله به *

فان قيل : فلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية قيل نعم لكن معرفة معانى الجميع فرض على الكفاية وعلى كل مسلم معرفة مالا بد منه وهولاء ذمهم الله لأنهم لا يعلمون معانى الكتاب الا تلاوة وليس عندهم الا ظن وهذا يشبه قوله : (وانهم لفى شك منه مريب) فان قيل فقد قال بعض المفسرين الأمانى الا ما يقولونه بأفواههم كذبا وباطلا وروى هذا عن بعض السلف واختاره الفراء، وقال الأمانى الأكاذيب المفتعلة قال بعض العرب لابن دأب - وهو يحدث - أهذا شىء رويته أم تمنيته أى افتعلته فأراد بالأمانى الأشياء التى كتبها علماء وهم من قبل أنفسهم ثم أضافوها الى الله من تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم الامانى يتمنون على الله الباطل والكذب كقولهم : (لن تمسنا النار الا أياما معدودة) وقولهم (لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى) وقولهم (نحن أبناء الله وأحباوه) وهذا أيضا يروى عن بعض السلف قيل كلا القولين ضعيف والصواب الأول لانه سبحانه قال (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى) وهذا الاستثناء اما أن يكون متصلا أو منقطعا فان كان متصلا لم يجز استثناء الكذب ولا أمانى القلب من الكتاب وان كان منقطعا فالاستثناء المنقطع انما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيها له من بعض الوجوه فهو من جنسه الذى لم يذكر فى اللفظ ليس من جنس المذكور ولهذا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرغ وذلك كقوله : (لا يذوقون فيها الموت) ثم قال : (الا الموتة الأولى) فهذا منقطع لانه يحسن أن يقال لا يذوقون

الا الموتة الأولى) وكذلك قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم) لأنه يحسن أن يقال لا تأكلوا أموالكم بينكم الا أن تكون تجارة، وقوله (وما لهم به من علم الا اتباع الظن) يصلح أن يقال وما لهم الا اتباع الظن فهنا لما قال (لا يعلمون الكتاب الا أمانى) يحسن أن يقال لا يعلموه الا أمانى فانهم يعلمونه تلاوة ويقرؤنها ويسمعونها ولا يحسن أن يقال لا يعلمون الا ما تتمناه قلوبهم أو لا يعلمون الا الكذب فانهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق أيضا فليس كل ما علموه من علمائهم كان كذبا بخلاف الذى لا يعقل معنى الكتاب فانه لا يعلم الا تلاوة ، وأيضا فهذه للأمانى الباطلة التى تمنوها بقلوبهم وقالوها بألسنتهم كقوله تعالى (تلك أمانيهم قد اشتركوا فيها كلهم) لا يخص بالذم الأميون منهم وليس لكونهم أميين مدخل فى الذم بهذه ولا لنفى العلم بالكتاب مدخل فى الذم بهذه بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل ، ولهذا لما ذم الله بها عمم ولم يخص فقال تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم) الاية ، وأيضا فانه قال (وان هم الا يظنون) فدل على أنه ذمهم على نفى العلم وعلى أنه ليس معهم الا الظن وهذا حال الجاهل بمعانى الكتاب لا حال من يعلم أنه يكذب ، فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل ولو أريد ذلك لقيل لا يقولون الا أمانى لم يقل لا يعلمون الكتاب الا أمانى بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فهم يحرفون معانى الكتاب وهم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه ويكذبون فى لفظهم وخطهم ، وقد ثبت فى الصحيحين عن

النبي ﷺ انه قال «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن» وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال «لتأخذن أمتي ما أخذ الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع قالوا يارسول الله فارس والروم ؟ قال ومن الناس الا أولئك»

فهذا دليل على أن ماذم الله به أهل الكتاب في هذه الاية يكون في هذه الامة من يشبههم فيه وهذا حق قد شوهد قال تعالى (سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) فمن تدبر ما أخبر الله به ورسوله رأى أنه قد وقع من ذلك أمور كثيرة بل أكثر الامور ودله ذلك على وقوع الباقي *

﴿فصل﴾ فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ومعرفة ما أراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم باحسان ومن سلك سبيلهم فكل مايحتاج الناس اليه في دينهم فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا فكيف بأصول التوحيد والايمان ثم إذا عرف مابينه الرسول نظر في أقوال الناس وما أرادوه بها فعرضت على الكتاب والسنة والعقل الصريح دائما موافق للرسول لايخالفه قط فان الميزان مع الكتاب والله أنزل الكتاب بالحق والميزان لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ماجاء به فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه ، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحيرات العقول لاتخبر بمحالات العقول فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك أن يبتدع بدعة برأي رجال وتأويلاتهم ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لها ويحرف ألفاظه ويتاول على وفق ما أصلوه وهؤلاء تجدهم في نفس الأمر

لايعتمدن على ماجاء به الرسول ولا يتلقون الهدى منه ولكن ماوافقهم منه قبلوه وجعلوه حجة لاعمدة وماخالفهم تألوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أو فوضوه كالذين لايعلمون الكتاب الاأمانى ، وهؤلاء قد لايعرفون ماجاء به الرسول اما عجزا واما تفريطا فانه يحتاج إلى مقدمتين ان الرسول قال كذا وانه أرادبه كذا ، أما الأولى فعامتهم لايرتابون فى أنه جاء بالقرآن وان كان من غلاة أهل البدع من يرتاب فى بعضه لكن الاحاديث عامة أهل البدع جهال بها وهم يظنون أن هذه رواها احاد يجوزون عليهم الكذب والخطاولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها والاسباب الموجبة للتصديق بهامايعلمه أهل العلم بالحديث فان هؤلاء يقطعون قطعاً يقينا بعامة المتون الصحيحة التى فى الصحيحين كما قدبسطناه فى غير هذا الموضع * وأما المقدمة الثانية فانهم قدلا يعرفون معانى القرآن والحديث ومنهم من يقول الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين بمراد المتكلم وقد بسطنا على فساد ذلك فى غير هذا الموضع ، وكثير منهم انما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم فالنصوص التى توافقهم يحتجون بها والتى تخالفهم يتأولونها ، وكثير منهم لم يكن عمدتهم فى نفس الأمر اتباع نص أصلا وهذا فى البدع الكبار مثل الرافضة والجهمية فان الذى وضع الرفض كان زنديقاً ابتدأ بعمل الكذب الصريح الذى يعلم انه كذب كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون ، ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ما افتروه اولئك وهم فى شك منه كما قال تعالى: (وان الذين اوتوا العلم من بعدهم لفى شك منه مريب) وكذلك الجهمية ليس معهم على نفى الصفات وعلو الله على العرش ونحو ذلك نص أصلا لا آية ولا حديث ولا اثر عن

الصحابة بل الذى ابتدأ ذلك لم يكن قصده اتباع الأنبياء بل وضع ذلك
كما وضعت عبادة الأوثان وغير ذلك من اديان الكفار مع علمهم بان
ذلك مخالف للرسل كما ذكر عن مبدلة اليهود ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا
أصل ذلك وهذا بخلاف بدعة الخوارج فان أصلها مافهموه من القرآن
فغلطوا فى فهمه ومقصودهم اتباع القرآن باطنا وظاهراً ليسوا زنادقة،
وكذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر والنهى والوعد والوعيد
والذى جاءت به الرسل ويتبعون من القرآن مادل على ذلك فعمرو بن
عبيد وامثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول كالذى ابتدع الرفض
وكذلك الارجاء انما أحدثه قوم قصدهم جعل أهل القبلة كلهم مؤمنين
ليسوا كفارا قابلوا الخوارج والمعتزلة فصاروا فى طرف آخر وكذلك
التشيع المتوسط الذى مضمونه تفضيل على وتقديمه على غيره ونحو ذلك
لم يكن هذا من أحداث الزنادقة بخلاف دعوى النص فيه والعصمة فان
الذى ابتدع ذلك كان منافقا زنديقا ولهذا قال: عبدالله بن المبارك ويوسف
ابن أسباط وغيرهما أصول البدعة أربعة الشيعة ، والخوارج ، والقدرية
والمرجئة قالوا : والجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة وكذلك ذكر
أبو عبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد فى ذلك قولين هذا أحدهما وهذا
أرادوا به التجهم المحض الذى كان عليه جهم نفسه ومتبعوه عليه وهو نفى
الاسماء مع نفى الصفات بحيث لايسمى الله بشىء من أسمائه الحسنى ولا يسميه
شيئاً ولا موجودا ولا غير ذلك وانما نقل عنه انه كان يسميه قادرا لأن جميع
الأسماء يسمى بها الخلق فزعم أنه يلزم منها التشبيه بخلاف القادر فانه كان
رأس الجبرية وعنده ليس للعبد قدرة ولا فعل ولا يسمى غير الله قادرا
فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادرا وشر منه نفاة الاسماء والصفات وهم

الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة *

ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى وهؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة واذا أظهروا الاسلام فغايتهم أن يكونوا من المنافقين كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك كانوا أقرب الى الاسلام من هؤلاء فانهم كانوا يلتزمون شرائع الاسلام الظاهرة وهؤلاء قد يقولون برفعها فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة لكن قد يقال ان أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء. واما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة ونحوهم الذين يتدينون بدين الاسلام باطنا وظاهرا فهؤلاء من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلا ريب، وكذلك من هو خير منهم كالكلابية والكرامية وكذلك الشيعة المفضلين لعلى ومن كان منهم من يقول بالنص والعصمة مع اعتقاده نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا وظنه ان ما هو عليه هو دين السلام فهؤلاء أهل ضلال وجهل ليسوا خارجين عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، وعامة هولاء ممن يتبع ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كما أن من المنافقين والكفار من يفعل ذلك ولهذا قال طائفة من المفسرين كالربيع بن أنس هم النصارى كنصارى نجران وقالت طائفة كالكلبى هم اليهود وقالت طائفة كابن جريج هم المنافقون وقالت طائفة كالحسن هم الخوارج وقالت طائفة كقتادة هم الخوارج والشيعة وكان قتادة اذا قرأ هذه الآية (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) يقول ان لم يكونوا الحرورية والسبائية فلا أدرى من هم، والسبائية نسبة الى عبد الله بن سبأ رأس الرافضة *

﴿ فصل ﴾ والمعنى الصحيح الذى هو نفى المثل والشريك والند

قد دل عليه قوله سبحانه أحد وقوله (ولم يكن له كفوا أحد)وقوله(هل تعلم له سميا) وأمثال ذلك فالمعانى الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنةوالعقل يدل على ذلك وقوله القائل: ـ الاحد أو الصمد ـ أو غير ذلك هو الذى لا ينقسم ولا يتفرق اوليس بمركب ونحو ذلك هذه العبارات اذا عنى بها انه لا يقبل التفرق والانفصال فهذا حق واما ان عنى انه لا يشار اليه بحال او من جنس مايعنون بالجوهر الفرد انه لا يشار الى شىء منه دون شىء فهذا عند اكثر العقلاء يمتنع وجوده وانما يقدر فى الذهن تقديرا وقد علمنا ان العرب حيث اطلقت لفظ الواحد والاحد نفيا واثباتا لم ترد هذا المعنى فقوله تعالى: (وان أحد من المشركين استجارك فاجره) لم يرد به هذا المعنى الذى فسروا به الواحد الاحد ، وكذلك قوله (وان كانت واحدة فلها النصف) وكذلك قوله (ولم يكن له كفوا أحد) فان المعنى لم يكن له أحد من الآحاد كفوا له فان كان الواحد عبارة عما لا يتميز منه شىء عن شىء ولا يشار الى شىء منه دون شىء فليس فى الموجودات ماهو احد الا مايدعونه من الجوهر الفرد ومن رب العالمين وحينئذ لا يكون قد نفى عن شىء من الموجودات ان يكون كفوا للرب لانه لم يدخل فى مسمى احد ، وقد بسطنا الكلام على هذا بسطا كثيرا فى المباحث العقلية والسمعية التى يذكرها نفاة الصفات من الجهمية واتباعهم فى كتابنا المسمى بيان تلبيس الجهمية فى تأسيس بدعهم الكلامية ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف كالامام أحمد وغيره على نفى الصفات باسم الواحد قال احمد قالوا لا تكونوا موحدين أبدا حتى تقولوا قد كان الله ولا شىء قلنا نحن نقول كان الله ولا شىء ولكن اذا قلنا ان الله لم يزل بصفاته كلها أليس انما نصف إلها واحدا وضربنا لهم فى ذلك مثلا فقلنا أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها

جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها شيء واحد وسميت نخلة بجميع صفاتها فكذلك الله وله المثل الاعلى بجميع صفاته اله واحد لانقول انه قد كان فى وقت من الاوقات ولايعلم حتى خلق له علما ولكن نقول لم يزل عالما قادرا مالكا لامتى ولا كيف ومما يبين هذا ان سبب نزول هذه السورة الذى ذكره المفسرون يدل على ذلك فانهم ذكروا أسبابا *

أحدها ما تقدم عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا الرسول الله ﷺ : أنعت لنا ربك فنزلت هذه السورة * والثانى أن عامر بن الطفيل قال للنبى ﷺ إلام تدعوننا اليه يا محمد؟ قال الى الله قال فصفه لى أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد فنزلت هذه السورة ، وروى ذلك عن ابن عباس من طريق أبى ظبيان وأبى صالح عنه * والثالث أن بعض اليهود قال ذلك قالوا من أى جنس هو وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فنزلت هذه السورة قاله قتادة والضحاك قال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء من أحبار اليهود الى النبى ﷺ فقالوا يا محمد صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فان الله أنزل نعته فى التوراة فأخبرنا به من أى شىء هو ومن أى جنس هو أمن ذهب أم من نحاس هو أم من صفر أم من حديث أم من فضة وهل يأكل ويشرب وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فأنزل الله هذه السورة وهى نسبة الله خاصة *

والرابع ماروى عن الضحاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبى ﷺ بسبعة أساقفة من بنى الحرث بن كعب منهم السيد والعاقب فقالوا للنبى ﷺ : صف لنا ربك من أى شىء هو قال النبى ﷺ : ان ربى ليس من شىء وهو بائن من الأشياء فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد) فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات وهل هو من مادة فبين الله تعالى أنه أحد ليس من جنس شىء من المخلوقات وانه صمد

من مادة بل هو صمد لم يلد ولم يولد واذا نفى عنه أن يكون مولودا من مادة الوالد فلان ينفى عنه ان يكون من سائر المواد اولى واحرى فان المولود من نظير مادته اكمل من مادة ماخلق من مادة اخرى كما خلق آدم من الطين فالمادة التى خلق منها اولاده افضل من المادة التى خلق منها هو ولهذا كان خلقه اعجب ، فاذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى اعظم تنزيها وهذا كما انه اذا كان منزها عن ان يكون احد كفوا له فلان يكون منزها عن ان يكون احد افضل منه اولى واحرى ، وهذا مما يبين ان هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد على النفى والاثبات ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن فالصمدية تثبت الكمال المنافى للنقائص والاحدية تثبت الانفراد بذلك ، وكذلك اذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التى هى أشرف المواد فلان ينزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بالطريق الأولى والأحرى واذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلان ينزه عن أن يخرج منه فضلات لا تصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأحرى والانسان يخرج منه مادة الولد ويخرج منه مادة غير الولد كما يخلق من عرقه ورطوبته القمل والدود وغير ذلك ، ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك وقد نزه الله أهل الجنة عن ان يخرج منهم شىء من ذلك وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون ، وانه يخرج منهم مثل رشح المسك وأنهم يجامعون بذكر لا يخفى وشهوة لا تنقطع ولا منى واذا اشتهى أحدهم الولد كان حمله ووضعه فى زمن يسير فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له ولد يخرج منه شىء من الاشياء كما يخرج من غيره من المخلوقات وهذا أيضا من تمام معنى الصمد كما سبق فى تفسيره انه الذى لا يخرج منه شىء وكذلك تنزيه نفسه عن أن

يولد فلا يكون من مثله تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأولى والأحرى وقد تقدم فى حديث أبى بن كعب انه ليس شىء يولد الا سيموت وليس شىء يموت الا يورث ، والله تعالى لا يموت ولا يورث وهذا رد لقول اليهود بمن ورث الدنيا ولمن يورثها وكذلك ما نقل من سؤال النصارى صف لنا ربك من اى شىء هو فقال النبى ﷺ : ان ربى ليس من شىء وهو بائن من الاشياء ، وكذلك سؤال المشركين واليهود أمن فضة هو أم من ذهب هو أم من حديد؟ وذلك لأن هولاء عهدوا الآلهة التى يعبدونها من دون الله يكون لها مواد صارت منها فعباد الاوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضة وحديد وغير ذلك وعباد البشر سواء كان البشر لم يأمروهم بعبادتهم أو أمروهم بعبادتهم كالذين يعبدون المسيح وعزيرا وكقوم فرعون الذين قال لهم أنا ربكم الاعلى وماعلمت لكم من اله غيرى وقال لموسى لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين، وكالذى آتاه الله نصيبا من الملك الذى حاج ابراهيم فى ربه اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا احيي وأميت ،وكالرجل الذى يدعى الهية ومامن خلق آدم الى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال، وكالذين قالوا (لا تذرنا آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) وقد قال غير واحد من السلف ان هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم وذلك أول ماعبدت الاصنام وان هذه الاصنام صارت الى العرب وقد ذكر ذلك البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال صارت الاوثان التى فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع

أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التى كانو يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت ، ونوح أقام فى قومه ألف سنة الاخمسين عاما يدعوهم الى التوحيد وهو أول رسول بعثه الله الى أهل الارض كما ثبت ذلك فى الصحيح ومحمد خاتم الرسل وكلا المرسلين بعث الى مشركين يعبدون هذه الاصنام التى صورت على صورة الصالحين من البشر والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين ، وكذلك المشركون من أهل الكتاب ومن مبتدعة هذه الامة وضلالها هذا غاية شركهم فان النصارى يصورون فى الكنائس صور من يعظمونه من الانس غير عيسى وأمه مثل مارجرجس وغيره من القداديس ويعبدون تلك الصور ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين تارة بان يتمثل الشيطان فى صورة ذلك الشخص الذى يدعى ويعبد فيظن داعيه انه قد أتى ويظن ان الله صور ملكا على صورته فان النصرانى مثلا يدعو فى الأسر وغيره مارجرجس أوغيره فيراه قد أتاه فى الهواء وكذلك غيره وقد سالوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد فى هذه الاماكن فقال هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه وانما تلك شياطين أضلت المشركين .

وهكذا يحسب كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة فان أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذى يعظمه وهو ميت أو يستغيث به عند قبره ويسأله وقد ينذر له نذرا ونحو ذلك ويرى ذلك الشخص قد أتاه فى الهواء ودفع عنه بعض مايكره أو كلمه ببعض ماسأله عنه ونحو

ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى ان كان حيا حتى انى أعرف من هؤلاء
جماعات يأتون الى الشيخ نفسه الذى استغاثوا به وقد رأوه أتاهم فى الهواء
فيذكرون ذلك له هؤلاء يأتون الى هذا الشيخ وهؤلاء ياتون الى هذا
الشيخ ، فتارة يكون الشيخ نفسه لم يعلم بتلك القضية فان كان يحب الرياسة
سكت وأوهم انه نفسه اتاهم واغاثهم وان كان فيه صدق مع جهل وضلال
قال: هذا ملك صوره الله على صورتى وجعل هذا من كرامات الصالحين
وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ومتخذهم اربابا وانهم اذا استغاثوا
بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم ولهذا اعرف غير
واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعباد لما ظنوا هذا
من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصى مريديه يقول اذا كانت لاحدكم
حاجة فليستغث بى ويستنجدنى ويستوصى ويقول: انا افعل بعد موتى
ما كنت افعل فى حياتى وهو لا يعرف ان تلك شياطين تصورت على صورته
لتضله وتضل اتباعه فتحسن لهم الاشراك بالله ودعاء غير الله والاستغاثة
بغير الله وانها قد تلقى فى قلبه انا نفعل بعد موتك باصحابك ما كنا نفعل
بهم فى حياتك فيظن هذا من خطاب الهى القى اليه فيأمر اصحابه بذلك،
واعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه فى حياته بانواع الخدم مثل
خطاب اصحابه المستغيثين به واعانتهم وغير ذلك فلما مات صاروا ياتون
احدهم فى صورة الشيخ ويشعرونه انه لم يمت ويرسلون الى اصحابه
رسائل بخطاب وقد كان يجتمع بى بعض اتباع هذا الشيخ وكان فيه زهد
وعبادة وكان يحبنى ويحب هذا الشيخ ويظن أن هذا من الكرامات
وان الشيخ لم يمت وذكر الى الكلام الذى أرسله اليه بعد موته فقرأه فاذا
هو كلام الشياطين بعينه وقد ذكر لى غير واحد ممن أعرفهم انهم استغاثوا

بي فرأونى فى الهواء قد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد مثل من أحاط
بهم النصارى الأرمن ليأخذوه وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات
من مناصحين لو اطلعوا على مامعه لقتلوه ونحو ذلك فذكرت لهم انى مادريت
بما جرى أصلا وحلفت لهم حتى لا يظنوا انى كتمت ذلك كما تكتم الكرامات
وانا قد علمت أن الذى فعلوه ليس بمشروع بل هو شرك وبدعة ثم تبين لى
فيما بعد و بينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به ٭

وحكى لى غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك
وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك واستفاض هذا
حتى عرف أن هذا من الشياطين تغوى الانسان بحسب الامكان فان كان
ممن لا يعرف دين الاسلام أوقعته فى الشرك الظاهر والكفر المحض فأمرته
أن لا يذكر الله وأن يسجد للشيطان ويذبح له وأمرته بأكل الميتة والدم
وفعل الفواحش وهذا يجرى كثيرا فى بلاد الكفر المحض وبلاد فيها
كفر واسلام ضعيف ويجرى فى بعض مدائن الاسلام فى المواضع التى
يضعف إيمان أصحابها حتى قد جرى ذلك فى مصر والشام على أنواع يطول
وصفها وهو فى أرض الشرق قبل ظهور الاسلام فى التتار كثير جدا وكلما
ظهر فيهم الاسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم وان كان مسلما
يختار الفواحش والظلم اعانته على الظلم والفواحش وهذا كثير جدا
أكثر من الذى قبله في البلاد التى فى أهلها اسلام وجاهلية وبر وفجور
وان كان الشيخ فيه اسلام وديانة ولكنه عنده قلة معرفة بحقيقة مابعث
الله به رسوله ﷺ وقد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات
وهو لا يعرف كمال الولاية وانها الايمان والتقوى واتباع الرسول باطنا
وظاهرا أو يعرف ذلك مجملا ولا يعرف من حقائق الايمان الباطن وشرائع

الاسلام الظاهرة ما يفرق به بين الأحوال الرحمانية وبين النفسانية والشيطانية
كما أن الرؤيا ثلاثة أقسام رؤيا من الله ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه
فى اليقظة فيراه فى المنام ورؤيا من الشيطان فكذلك الأحوال فاذا كان عنده
قلة معرفة بحقيقة دين محمد ﷺ أمرته الشياطين بأمر لا ينكره فتارة يحملون
أحدهم فى الهواء ويقفون به بعرفات ثم يعيدونه الى بلده وهو لابس ثيابه
لم يحرم حين حاذى المواقيت ولا كشف رأسه ولا تجرد عما يتجرد عنه
المحرم ولا يدعونه بعد الوقوف يطوف طواف الافاضة ويرمى الجمار ويكمل
حجه بل يظن أن مجرد الوقوف كما فعل به عبادة وهذا من قلة علمه بدين
الاسلام ولو علم دين الاسلام لعلم أن هذا الذى فعله ليس عبادة لله والا من
استحل هذا فهو مرتد يجب قتله بل اتفق المسلمون على أنه يجب الاحرام
عند الميقات ولا يجوز للانسان المحرم اللبس فى الاحرام الا من عذر ، وأنه
لا يكتفى بالوقوف بل لابد من طواف الافاضة باتفاق المسلمين بل وعليه
أن يفيض الى المشعر الحرام ويرمى جمرة العقبة وهذا مما تنوزع فيه هل
هو ركن أو واجب يجبره دم ، وعليه أيضا رمى الجمار ايام منى باتفاق المسلمين
وقد تحمل احدهم الجن فتزوره بيت المقدس وغيره وتطير به فى الهواء وتمشى
به فى الماء وقد تريه انه قد ذهب به الى مدينة الأولياء وربما ارته انه يأكل
من ثمار الجنة ويشرب من انهارها * وهذا كله وامثاله مما اعرفه قد وقع لمن
اعرفه لكن هذا باب طويل ليس هذا موضع بسطه وانما المقصود ان اصل
الشرك فى العالم كان من عبادة البشر الصالحين وعبدوا تماثيلهم وهم المقصودون
ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب اما الشمس واما القمر واما
غيرهما وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب ، وشرك قوم ابراهيم والله
أعلم كان من هذا أو كان بعضه من هذا ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة

أو الجن وضعت الأصنام لأجلهم والا فنفس الاصنام الجمادية لم تعبد لذاتها بل لأسباب اقتضت ذلك وشرك العرب كان أعظمه الأول وكان فيه من الجميع فان عمرو بن لحى هو أول من غير دين ابراهيم عليه السلام وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع ويدفعون بها المضار فصنع مثل ذلك فى مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش وكان هو سيد خزاعة، وفى الصحيحين عن النبى ﷺ انه قال «رأيت عمرو بن لحى ابن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار اى امعاءه» وهو اول من غير دين ابراهيم وسيب السوائب وبحر البحيرة و كذلك والله أعلم شرك قوم نوح وان كان مبدؤه من عبادة الصالحين فالشيطان يجر الناس من هذا الى غيره لكن هذا أقرب الى الناس لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه فيعكفون على قبره ويقصدون ذلك منه فتارة يسالونه وتارة يسألون الله به ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه فى المساجد والبيوت.

ولما كان هذا مبدأ الشرك سد النبى ﷺ هذا الباب كما سد باب الشرك بالكواكب، ففى صحيح مسلم عنه أنه قال قبل ان يموت بخمس «ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك» وفى الصحيحين عنه أنه ﷺ ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاويرفيها فقال «ان أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القامة» وفى الصحيحين عنه أنه قال ﷺ فى مرض موته «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا» قالت عائشة ولولا ذلك لابرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا، وفى مسند أحمد وصحيح أبى حاتم عنه أنه قال ﷺ «ان من شرار الناس من تدركهم الساعة

وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد» وفى سنن أبى داود وغيره عنه أنه قال ﷺ «لا تتخذوا قبرى عيدا وصلوا على حيث ما كنتم فان صلاتكم تبلغنى» *
وفى موطأ مالك عنه أنه قال ﷺ «اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وفى صحيح مسلم عن أبى الهياج الاسدى قال قال لى على بن أبى طالب رضى الله عنه الا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ أمرنى أن لا أدع قبرا مشرفا الا سويته ولا تمثالا الا طمسته فأمره بمحو التماثيل الصورة الممثلة على صورة الميت والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره فان الشرك يحصل بهذا وبهذا *
وقد ثبت عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان فى سفر فرأى قوما ينتابون مكانا للصلاة فقال ما هذا فقالوا هذا مكان صلى فيه رسول الله ﷺ فقال انما هلك من كان قبلكم بهذا انهم اتخذوا آثار انبيائهم مساجد من أدركته الصلاة فليصل والا فليمض، وبلغه أن قوما يذهبون الى الشجرة التى بايع النبى ﷺ أصحابه تحتها فأمر بقطعها وأرسل اليه أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال وعنده مصحف فيه أخبار ما سيكون وأنهم اذا أجدبوا كشفوا عن القبر فمطروا فأرسل اليه عمر يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا ويدفنه بالليل فى واحد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتنوا به، فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله وان لم يبن عليها مسجدا كان بناء المساجد عليها أعظم *
كذلك قال العلماء يحرم بناء المساجد على القبور ويجب هدم كل مسجد بنى على قبر وان كان الميت قد قبر فى مسجد وقد طال مكثه سوى القبر حتى لا تظهر صورته فان الشرك انما يحصل اذا ظهرت صورته ولهذا كان مسجد النبى ﷺ أولا مقبرة للمشركين وفيها نخل وخرب فأمر بالقبور فنبشت وبالنخل فقطع وبالخرب فسويت فخرج عن أن يكون مقبرة فصار مسجدا *

ولما كان اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها محرما ولم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم باحسان ولم يكن يعرف قط مسجد على قبر وكان الخليل عليه السلام فى المغارة التى دفن فيها وهى مسدودة لا أحد يدخل اليها ولا تشد الصحابة الرحال لا اليه ولا الى غيره من المقابر لأن فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدى هذا» فكان يأتى من يأتى منهم إلى المسجد الاقصى يصلون فيه ثم يرجعون لا يأتون مغارة الخليل ولا غيرها وكانت مغارة الخليل مسدودة حتى استولى النصارى على الشام فى اواخر المائة الرابعة ففتحوا الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذه بعض الناس مسجدا وأهل العلم ينكرون ذلك والذى يرويه بعضهم فى حديث الاسراء انه قيل للنبى ﷺ هذه طيبة انزل فصل فنزل فصلى هذا مكان ابيك انزل فصل كذب موضوع لم يصل النبى ﷺ تلك الليلة الا فى المسجد الاقصى خاصة كما ثبت ذلك فى الصحيح ولا نزل الا فيه

ولهذا لما قد الشام من الصحابة من لا يحصى عددهم الا الله وقدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس وبعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية وشرط عليهم الشروط المعروفة وقدمها مرة ثالثة حتى وصل إلى سرغ ومعه اكابر السابقين الاولين من المهاجرين والانصار فلم يذهب احد منهم إلى مغارة الخليل ولا غيرها من آثار الأنبياء التى بالشام لا بيت المقدس ولا بدمشق ولا غير ذلك مثل الآثار الثلاثة التى بجبل قاسيون فى غربية الربوة المضافة إلى عيسى عليه السلام وفى شرقية المقام المضاف إلى الخليل عليه السلام وفى وسطه واعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله

قابيل ، فهذه البقاع وامثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها ولا يزورونها ولا يرجون منها بركة فانها محل الشرك ولهذا توجد فيها الشياطين كثيراً وقد رآهم غير واحد على صورة الانس ويقولون لهم رجال الغيب يظنون انهم رجال من الانس غائبين عن الابصار وانما هم جن والجن يسمون رجالا لما قال الله تعالى :(وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) والانس سموا انسا لانهم يؤنسون اى يرون كما قال (انى آنست نارا) اى رايتها، والجن سموا جنا لاجتنانهم يجتنون عن الابصار اى يستترون كما قال تعالى : (فلما جن عليه الليل) اى استولى عليه فغطاه وستره ، وليس احد من الانس يستتر دائما عن أبصار الانس وانما يقع هذا لبعض الانس فى بعض الاحوال تارة على وجه الكرامة له وتارة يكون من باب السحر وعمل الشياطين ، ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر، والمقصود ههنا ان الصحابة والتابعين لهم باحسان لم يبنوا قط على قبر نبى ولا رجل صالح مسجدا ولا جعلوه مشهدا ومزارا ولا على شىء من آثار الانبياء مثل مكان نزل فيه أوصلى فيه أو فعل فيه شيئا من ذلك لم يكونوا يقصدون بناء مسجد لأجل آثار الانبياء والصالحين ولم يكن جمهورهم يقصدون الصلاة فى مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه بل نزل فيه أوصلى فيه اتفاقا بل كان أئمتهم كعمر بن الخطاب وغيره ينهى عن قصد الصلاة فى مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفاقا لاقصدا وانما نقل عن ابن عمر خاصة انه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول الله ﷺ وينزل حيث نزل ويصلى حيث صلى وان كان النبى ﷺ لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل بل حصل اتفاقا وكان ابن عمر رضى الله عنهما رجلا صالحا شديد الاتباع فرأى هذا من الاتباع

وأما أبوه وسائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان وعلى وسائر العشرة وغيرهم مثل ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب فلم يكونوا يفعلون مافعل ابن عمر وقول الجمهور أصح وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل مافعل على الوجه الذى فعل لاجل أنه فعل فاذا قصد الصلاة والعبادة فى مكان معين كان قصد الصلاة والعبادة فى ذلك المكان متابعة له وأما اذا لم يقصد تلك البقعة فان قصدها يكون مخالفة لامتابعة له مثال الأول لما قصد الوقوف والذكر والدعاء بعرفة ومزدلفة وبين الجمرتين كان قصد تلك البقاع متابعة له وكذلك لما طاف وصلى خلف المقام ركعتين كان فعل ذلك متابعة له وكذلك لما صعد على الصفا والمروة للذكر والدعاء كان قصد ذلك متابعة له وقد كان سلمة بن الاكوع يتحرى الصلاة عند الاسطوانة قال لانى رأيت رسول الله ﷺ يتحرى الصلاة عندها فلما رآه يقصد تلك البقعة لاجل الصلاة كان ذلك القصد للصلاة متابعة وكذلك لما أراد عتبان ومالك أن يبنى مسجدا لما عمى فأرسل الى رسول الله ﷺ قال له انى أحب أن تأتينى تصلى فى منزلى فاتخذه مصلى وفى رواية فقال تعالى فخط لى مسجدا فأتى النبى ﷺ ومن شاء من أصحابه وفى رواية فغدا على رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله ﷺ فاذنت له فلم يجلس حتى دخل البيت فقال أين تحب أن أصلى من بيتك فاشرت له الى ناحية من البيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمنا وراءه فصلى ركعتين ثم سلم الحديث *

فانه قصد أن يبنى مسجدا وأحب أن يكون أول من يصلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم وأن يبنيه فى الموضع الذى صلى فيه فالمقصود كان بناء المسجد وأراد أن يصلى النبى صلى الله عليه وسلم فى المكان الذى يبنيه

فكانت الصلاة مقصودة لاجل المسجد لم يكن بناء المسجد مقصودا لاجل كونه صلى فيه اتفاقا ، وهذا المكان مكان قصد النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة فيه ليكون مسجدا فصار قصد الصلاة فيه متابعة له بخلاف ما اتفق انه صلى فيه بغير قصد وكذلك قصد يوم الاثنين والخميس بالصوم متابعة لانه قصد صوم هذين اليومين ، وقال فى الحديث الصحيح انه تفتح أبواب الجنة فى كل خميس واثنين فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً الا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال انظروا هذين حتى يصطلحا ، وكذلك قصد اتيان مسجد قباء متابعة له فانه قد ثبت عنه فى الصحيحين انه كان ياتى قباء كل سبت راكبا وماشيا وذلك ان الله أنزل عليه (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم احق أن تقوم فيه) وكان مسجده هو الاحق بهذا الوصف ، وقد ثبت فى الصحيح انه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال هو مسجدى هذا يريد انه اكمل فى هذا الوصف من مسجد قباء ومسجد قباء أيضا أسس على التقوى وبسببه الآية ولهذا قال (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) وكان أهل قباء مع الوضوء والغسل يستنجون بالماء تعلموا ذلك من جيرانهم اليهود ولم تكن العرب تفعل ذلك فاراد النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان لا يظن ظان ان ذاك هو الذى أسس على التقوى دون مسجده فذكر ان مسجده أحق بان يكون هو المؤسس على التقوى فقوله لمسجد أسس على التقوى يتناول مسجده ومسجد قباء ويتناول كل مسجد أسس على التقوى بخلاف مساجد الضرار ولهذا كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشبه ذلك ويرون العتيق أفضل من الجديد لان العتيق أبعد عن أن يكون بنى ضرارا من الجديد الذى يخاف ذلك فيه وعتق المسجد مما يحمد به ولهذا قال (ثم محلها إلى البيت العتيق) وقال (ان أول بيت وضع للناس

للذى ببكة) فان قدمه يقتضى كثرة العبادة فيه ايضاً وذلك يقتضى زيادة فضله ولهذا لم يستحب علماء السلف من اهل المدينة وغيرها قصد شىء من المساجد والمزارات التى بالمدينة وماحولها بعد مسجد النبى صلى الله عليه وآله وسلم الا مسجد قباء لان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد مسجدا بعينه يذهب اليه هو ، وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الانصار مسجد لكن ليس فى قصده دون امثاله فضيلة بخلاف مسجدى قباء فانه اول مسجد بنى بالمدينة على الاطلاق وقد قصده الرسول بالذهاب اليه وصح عنه ﷺ أنه قال «من توضأ فى بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد الا الصلاة فيه كان كعمرة» ومع هذا فلا يسافر اليه لكن اذا كان الانسان بالمدينة أتاه ولا يقصد انشاء السفر اليه بل يقصد انشاء السفر الى المساجد الثلاثة لقوله ﷺ «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجدى هذا» ولهذا لو نذر السفر الى مسجد قباء لم يوف بنذره عند الائمة الاربعة وغيرهم بخلاف المسجد الحرام فانه يجب الوفاء بالنذر اليه باتفاقهم ، وكذلك مسجد المدينة وبيت المقدس فى أصح قوليهم وهو مذهب مالك وأحمد والشافعى فى أحد قوليه وفى الآخر وهو قول أبى حنيفة ليس عليه ذلك لكنه جائز ومستحب لان من أصله انه لا يجب بالنذر الا ماكان واجبا بالشرع والاكثرون يقولون يجب بالنذر كل ما كان طاعة لله كما ثبت فى صحيح البخارى عن عائشة عن النبى ﷺ أنه قال «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه» ويستحب زيارة قبور البقيع وشهداء أحد للدعاء لهم والاستغفار لان النبى ﷺ كان يقصد ذلك مع ان هذا مشروع لجميع موتى المسلمين كما يستحب السلام عليهم والدعاء لهم والاستغفار وزيارة القبور بهذا القصد مستحبة وسواء في ذلك قبور

الانبياء والصالحين وغيرهم ، وكان عبد الله بن عمر اذا دخل المسجد يقول السلام عليك يارسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبه ثم ينصرف *

وأما زيارة قبور الانبياء والصالحين لاجل طلب الحاجات منهم أودعائهم والاقسام بهم على الله أوظن أن الدعاء أوالصلاة عند قبورهم أفضل منه فى المساجد والبيوت فهذا ضلال وشرك وبدعة باتفاق أئمة المسلمين ولم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك ولا كانوا اذا سلموا على النبى ﷺ يقفون يدعون لانفسهم ، ولهذا كره ذلك مالك وغيره من العلماء لانها من البدع التى لم يفعلها السلف ، واتفق العلماء الاربعة وغيرهم من السلف على أنه اذا أراد أن يدعو يستقبل القبلة ولا يستقبل قبر النبى صلى الله عليه وسلم وأما اذا سلم عليه فأكثرهم قالوا يستقبل القبر قاله مالك والشافعى وأحمد ، وقال أبو حنيفة: بل يستقبل القبلة أيضا ويكون القبر عن يساره وقيل بل يستدبر القبلة *

ومما يبين هذا الاصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر هو وأبو بكر ذهبا الى الغار الذى بجبل ثور ولم يكن على طريقهما بالمدينة فانه من ناحية اليمن والمدينة من ناحية الشام ولكن اختبآ فيه ثلاثا لينقطع خبرهما عن المشركين فلا يعرفون أين ذهبا فان المشركين كانوا طالبين لهما وقد بذلوا فى كل واحد منهما ديته لمن يأتى به وكانوا يقصدون منع النبى ﷺ أن يصل الى أصحابه بالمدينة وأن لا يخرج من مكة بل لما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكة فلو سلك الطريق ابتداء لأدركوه فأقام بالغار ثلاثا لأجل ذلك فلو أراد المسافر من مكة الى المدينة أن يذهب الى الغار ثم يرجع لم يكن ذلك مستحبا بل مكروها والنبى ﷺ فى الهجرة سلك طريق الساحل وهى طويلة وفيها دورة وأما فى عمره وحجته فكان يسلك الوسط

وهو أقرب الى مكة فسلك فى الهجرة طريق الساحل لأنها كانت أبعد عن قصد المشركين فان الطريق الوسطى كانت أقرب إلى المدينة فيظنون انه سلكها كما كان اذا أراد غزوة ورى بغيرها وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما قسم غنائم حنين بالجعرانة اعتمر منها ولما صده المشركون عن مكة حل بالحديبية وكان قد أنشأ الاحرام بالعمرة من ميقات المدينة ذى الحليفة. ولما اعتمر من العام القابل عمرة القضية اعتمر من ذى الحليفة ولم يدخل الكعبة فى عمره ولا حجته وانما دخلها عام الفتح وكان بها صور مصورة فلم يدخلها حتى محيت تلك الصور وصلى بها ركعتين وصلى يوم الفتح ثمان ركعات وقت الضحى كما روت أم هانىء. ولكن لم يقصد الصلاة وقت الضحى الا لسبب مثل أن يقدم من سفر فيدخل المسجد فيصلى فيه ركعتين ومثل أن يشغله نوم أو مرض عن قيام الليل فيصلى بالنهار ثنتى عشرة ركعة وكان يصلى بالليل احدى عشرة ركعة فصلى ثنتى عشرة ركعة شفعا لفوات وقت الوتر فانه ﷺ قال المغرب وتر صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل، وقال اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا وقال صلاة الليل مثنى مثنى فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة *

والمأثور عن السلف أنهم اذا ناموا عن الوتر كانوا يوترون قبل صلاة الفجر ولا يؤخرونه الى ما بعد الصلاة وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ماصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط وانى لاسبحها وان كان ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم وقد ثبت عنه فى الصحيح انه أوصى بركعتى الضحى لأبى هريرة ولأبى الدرداء وفيها أحاديث لكن صلاته ثمان ركعات يوم الفتح جعلها بعض العلماء صلاة الضحى *

وقال آخرون : لم يصلها الا يوم الفتح فعلم انه صلاها لاجل الفتح

وكانوا يستحبون عند فتح مدينة أن يصلى الامام ثمانى ركعات شكرا لله ويسمونها صلاة الفتح قالوا لان الاتباع يعتبر فيه القصد والنبي ﷺ لم يقصد الصلاة لاجل الوقت ولو قصد ذلك لصلى كل يوم أو غالب الايام كما كان يصلى ركعتى الفجر كل يوم وكذلك كان يصلى بعد الظهر ركعتين وقبلها ركعتين أو أربعا ولما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاهما بعد العصر وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما نام هو وأصحابه عن صلاة الفجر فى غزوة خيبر فصلوا بعد طلوع الشمس ركعتين ثم ركعتين لم يقل أحد ان هذه الصلاة فى هذا الوقت سنة دائما لانهم انما صلوها قضاء لكونهم ناموا عن الصلاة ولما فاتته العصر فى بعض أيام الخندق فصلاها بعد ما غربت الشمس ، وروى أن الظهر فاتته أيضا فصلى الظهر ثم العصر ثم المغرب لم يقل أحد أنه يستحب أن يصلى بين العشاءين احد عشر ركعة لأن ذلك كان قضاء بل ولانقل عنه أحد انه خص مابين العشاءين بصلاة ، وقوله تعالى : (ناشئة الليل) عند أكثر العلماء هو اذا قام الرجل بعد نوم ليس هو أول الليل وهذاهو الصواب لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هكذا كان يصلى بالليل والأحاديث بذلك متواترة عنه كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشاءين وكذلك أكله ما كان يجد من الطعام ولبسه الذى يوجد بمدينته طيبة مخلوقا فيها ومجلوبا اليها من اليمن وغيرها لانه هو الذى يسره الله له فأكله التمر وخبز الشعير وفاكهته الرطب والبطيخ الأخضر والقثاء، ولبس ثياب اليمن لان ذلك هو كان الميسر فى بلده من الطعام والثياب لالخصوص ذلك فمن كان ببلد آخر وقوتهم البر والذرة وفاكهتهم العنب الرمان ونحو ذلك وثيابهم مما ينسج بغير اليمن لم يكن اذا قصد أن يتكلف من القوت والفاكهة واللباس ماليس فى بلده بل يتعسر عليهم متبعا للرسول

صلى الله عليه وسلم وان كان ذلك الذى يتكلفة تمرا أو رطبا أوخبز شعير فعلم أنه لابد فى المتابعة للنبى صلى الله عليه وسلم من اعتبار القصد والنية «فانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى» فعلم أن الذى عليه جمهور الصحابة وأكابرهم هو الصحيح ومع هذا فابن عمر رضى الله عنهما لم يكن يقصد أن يصلى الا فى مكان صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يقصد الى الصلاة فى موضع نزوله ومقامه ولا كان أحد من الصحابة يذهب الى الغار المذكور فى القرآن للزيارة والصلاة فيه وان كان النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه أقاما به ثلاثا يصلون فيه الصلوات الخمس ولا كانوا أيضاً يذهبون الى حراء وهو المكان الذى كان يتعبد فيه قبل النبوة وفيه نزل عليه الوحى أولا وكان هذا مكان يتعبدون فيه قبل الاسلام فان حراء أعلى جبل كان هناك فلما جاء الاسلام ذهب النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى مكة مرات بعد ان أقام بها قبل الهجرة بضع عشرة سنة ومع هذا فلم يكن هو ولا أصحابه يذهبون الى حراء ٭

ولما حج النبى صلى الله عليه وسلم استلم الركنين اليمانيين ولم يستلم الشاميين لانهما لم يبنيا على قواعد ابراهيم فان أكثر الحجر من البيت والحجر الاسود استلمه وقبله واليمانى استلمه ولم يقبله وصلى بمقام ابراهيم ولم يستلمه ولم يقبله فدل ذلك على ان التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الاسود ليس بسنة ودل على ان استلام مقام ابراهيم وتقبيله ليس بسنة واذا كان هذا نفس الكعبة ونفس مقام ابراهيم بها فمعلوم ان جميع المساجد حرمتها دون الكعبة وان مقام ابراهيم بالشام وغيرها وسائر مقامات الأنبياء دون المقام الذى قال الله فيه : (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) فعلم ان سائر المقامات لاتقصد

للصلاة فيها كما لا يحج الى سائر المشاهد ولا يتمسح بها ولا يقبل شيء من مقامات الأنبياء ولا المساجد ولا الصخرة ولا غيرها ولا يقبل وجه الأرض الا الحجر الأسود ، وأيضا فالنبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل بمسجد بمكة الا المسجد الحرام ولم يأت للعبادات الى المشاعر منى ومزدلفة وعرفة فلهذا كان أئمة العلماء على أنه لا يستحب أن يقصد مسجدا بمكة للصلاة غير المسجد الحرام ولا تقصد بقعة للزيارة غير المشاعر التى قصدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واذا كان هذا فى آثارهم فكيف بالمقابر التى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخذها مساجد وأخبر انهم شرار الخلق يوم القيامة . ودين الاسلام انه لا تقصد بقعة للصلاة الا أن تكون مسجدا فقط ولهذا مشاعر الحج غير المسجد الحرام تقصد للنسك لا للصلاة فلا صلاة بعرفة وانما صلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر يوم عرفة بعرفة خطب بها ثم صلى ثم بعد الصلاة ذهب الى عرفات فوقف بها ، وكذلك يذكر الله ويدعى بعرفات وبمزدلفة على قزح وبالصفا والمروة وبين الجمرات وعند الرمى ولا تقصد هذه البقاع للصلاة وأما غير المساجد ومشاعر الحج فلا تقصد بقعة لا للصلاة ولا للذكر ولا للدعاء بل يصلى المسلم حيث أدركته الصلاة الا حيث نهى ويذكر الله ويدعوه حيث تيسر من غير تخصيص بقعة بذلك واذا اتخذ بقعة لذلك كالمشاهد نهى عن ذلك كما نهى عن الصلاة فى المقبرة الا ما يفعله الرجل عند السلام على الميت من الدعاء له وللمسلمين كما يفعل مثل ذلك فى الصلاة على الجنازة فان زيارة قبر المؤمن من جنس الصلاة على جنازته يفعل فى هذا من جنس ما يفعل فى هذا ويقصد بالدعاء هنا ما يقصد بالدعاء هنا *

ومما يشبه هذا ان الانصار بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بالوادى

الذى وراء جمرة العقبة لأنه مكان منخفض قريب من منى يستتر من فيه فان السبعين الانصار نوا قد حجوا مع قومهم المشركين ومازال الناس يحجون الى مكة قبل الاسلام وبعده فجاؤا مع قومهم الى منى لاجل الحج ثم ذهبوا بالليل الى ذلك المكان لقربه وستره لا لفضيلة فيه ولم يقصدوه لفضيلة تخصه بعينه ٭

ولهذا لما حج النبى صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه لم يذهبوا اليه ولا زاروه وقد بنى هناك مسجد وهو محدث وكل مسجد بمكة وما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث ومنى نفسها لم يكن بها على عهد النبى ﷺ مسجد مبنى ولكن قال منى مناخ لمن سبق فنزل بها المسلمون وكان يصلى بالمسلمين بمنى وغير منى وكذلك خلفاؤه من بعده واجتماع الحجاج بمنى أكثر من اجتماعهم بغيرها فانهم يقيمون بها أربعا وكان النبى ﷺ وأبو بكر وعمر يصلون بالناس بمنى وغير منى وكانوا يقصرون الصلاة بمنى وعرفة ومزدلفة ويجمعون بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء بمزدلفة ويصلى بصلاتهم جميع الحجاج من أهل مكة وغير أهل مكة كلهم يقصرون الصلاة بالمشاعر وكلهم يجمعون بعرفة ومزدلفة ﴿وقد تنازع العلماء﴾ فى أهل مكة ونحوهم هل يقصرون أو يجمعون فقيل لا يقصرون ولا يجمعون كما يقول ذلك من يقول من اصحاب الشافعى وأحمد وقيل يجمعون ولا يقصرون كما يقول ذلك أبو حنيفة وأحمد ومن وافقه من أصحابه وأصحاب الشافعى وقيل يجمعون ويقصرون كما قال ذلك مالك وابن عيينة واسحق بن راهويه وبعض أصحاب أحمد وغيرهم وهذا هو الصواب بلا ريب فانه الذى فعله أهل مكة خلف النبى ﷺ بلا ريب ولم يقل النبى ﷺ قط ولا أبو بكر ولا عمر بمنى ولا عرفة ولا مزدلفة يا أهل مكة أتموا صلاتكم فانا قوم سفر ولكن ثبت ان عمر قال ذلك فى جوف مكة وكذلك فى السنن عن النبى ﷺ أنه قال ذلك فى

جوف مكة فى غزوة الفتح وهذا من أقوى الادلة على أن القصر مشروع لكل مسافر ولو كان سفره بريدا فان عرفة من مكة بريد أربع فراسخ ولم يصل النبى ﷺ ولا خلفاؤه بمكة صلاة عيد بل ولا صلى في اسفاره قط صلاة العيد ولا صلى بهم فى أسفاره صلاة جمعة يخطب ثم يصلى ركعتين بل كان يصلى يوم الجمعة فى السفر ركعتين كما يصلى فى سائر الايام *

وكذلك لما صلى بهم الظهر والعصر بعرفة صلى ركعتين كصلاته فى سائر الأيام ولم ينقل أحد أنه جهر بالقراءة يوم الجمعة فى السفر لا بعرفة ولا بغيرها ولا أنه خطب بغير عرفة يوم الجمعة فى السفر فعلم أن الصواب ماعليه سلف الأمة وجماهيرها من الأئمة الأربعة وغيرهم من أن المسافر لا يصلى جمعة ولا غيرها وجمهورهم أيضا على أنه لا يصلى عيدا وهو قول مالك وأبى حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين وهذا هو الصواب أيضا فان النبى ﷺ وخلفاءه لم يكونوا يصلون العيد الا في المقام لا فى السفر ولم يكن يصلى صلاة العيد الا فى مكان واحد مع الامام يخرج بهم الى الصحراء فيصلى هناك فيصلى المسلمون كلهم خلفه صلاة العيد كما يصلون الجمعة ولم يكن أحد من المسلمين يصلى صلاة عيد فى مسجد قبيلة ولا بيته كما لم يكونوا يصلون جمعة فى مساجد القبائل ولا كان أحد منهم بمكة يوم النحر يصلى صلاة عيد على عهد النبى ﷺ وخلفائه بل عيدهم بمنى بعد افاضتهم من المشعر الحرام ورمى جمرة العقبة لهم كصلاة العيد لسائر أهل الأمصار يرمون ثم ينحرون والنبى صلى الله عليه وسلم لما أفاض من منى نزل بالمحصب فاختلف أصحابه هل التحصيب سنة لاختلافهم فى قصده هل قصد النزول به أو نزل به لأنه كان أسمح لخروجه *

وهذا مما يبين أن المقاصد كانت معتبرة عندهم فى المتابعة ولما اعتمر عمرة القضية وكانت مكة مع المشركين لم تفتح بعد وكان المشركون

قد قالوا يقدم عليكم قوم قد وهنتهم يثرب وقعد المشركون خلف قعيقعان
وهو جبل المروة ينظرون اليهم فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن
يرملوا ثلاثة أشواط من الطواف ليرى المشركين جلدهم وقوتهم وروى
أنه دعا لمن فعل ذلك ولم يرملوا بين الركنين لان المشركين لم يكونوا يرونهم
من ذلك الجانب فكان المقصود بالرمل اذ ذاك من جنس المقصود بالجهاد .

فظن بعض المتقدمين أنه ليس من النسك لانه فعل لقصد وزال لكن ثبت فى
الصحيح ان النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه لما حجوا رملوا من الحجر الاسود الى
الحجر الاسود فكملوا لرمل بين الركنين وهذا قدر زائد على مافعلوه فى عمرة
القضية وفعل ذلك فى حجة الوداع مع الامن العام فانه لم يحج معه الامؤمن فدل
ذلك على ان الرمل صار من سنة الحج فانه فعل أولا لمقصود الجهاد ثم شرع نسكا
كما روى فى سعى هاجر وفى رمى الجمار وفى ذبح الكبش انه فعل أولا لمقصود ثم
شرعه الله نسكا وعبادة لكن هذا يكون اذا شرع الله ذلك وأمر به وليس لاحد
أن يشرع مالم يشرعه الله كما لو قال قائل أنا أستحب الطواف بالصخرة سبعا
كما يطاف بالكعبة أو استحب ان اتخذ من مقام موسى وعيسى مصلى كما أمر الله
أن يتخذ من مقام ابراهيم مصلى ونحو ذلك لم يكن له ذلك لان الله تعالى يختص ما
يختصه من الاعيان والافعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه اما لمعنى
يختص به لا يوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم وأما لمحض تخصيص
المشيئة على قول بعضهم كما خص الكعبة بان يحج اليها ويطاف بها وكما
خص عرفات بالوقوف بها وكما خص منى برمى الجمار بها وكما خص الاشهر
الحرم بتحريمها وكما خص شهر رمضان بصيامه وقيامه الى أمثال ذلك .

وابراهيم ومحمد كل منهما خليل الله فانه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه
عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا وقد ثبت فى

الصحيح أن رجلا قال للنبي ﷺ ياخير البرية قال ذاك ابراهيم فابراهيم أفضل الخلق بعد محمد ﷺ وقوله ذاك ابراهيم تواضع منه فانه قد ثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه «قال أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم فمن دونه تحت لوائى يوم القيامة ولا فخر» الى غير ذلك من النصوص المبينة انه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وابراهيم هو الامام الذى قال الله فيه: (إنى جاعلك للناس اماما) وهو الأمة أى القدوة الذى قال الله فيه: (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً) وهو الذى بوأه الله مكان البيت وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج اليه وقد حرم الله الحرم على لسانه واسمعيل نبأه معه وهو الذبيح الذى بذل نفسه لله وصبر على المحنة كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة فى غير هذا الموضع وأمه هاجر هى التى أطاعت الله ورسوله ابراهيم فى مقامها مع ابنها فى ذلك الوادى الذى لم يكن به أنيس كما قال الخليل: (ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) وكان لابراهيم ولآل ابراهيم من محبة الله وعبادته والايمان به وطاعته مالم يكن لغيرهم فخصهم الله بأن جعل لبيته الذى بنوه له خصائص لاتوجد لغيره وجعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها ولا ريب أن الله شرع لابراهيم السعى ورمى الجمار والوقوف بعرفات بعد ماكان من أمر هاجر واسمعيل وقصة الذبح وغير ذلك ماكان كما شرع لمحمد الرمل فى الطواف حيث أمره أن ينادى فى الناس بحج البيت والحج مبناه على الذل والخضوع لله ولهذا خص باسم النسك والنسك فى اللغة العبادة *

قال الجوهرى : النسك العبادة والناسك العابد وقد نسك وتنسك أى تعبد ونسك بالضم أى صار ناسكا ثم خص الحج باسم النسك لانه أدخل فى العبادة والذل لله من غيره ولهذا كان فيه من الافعال مالا يقصد فيه الا

بجرد الذل لله والعبادة له كالسعى ورمى الجمار قال النبى ﷺ «انما جعل رمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة لاقامة ذكر الله» رواه الترمذى وخص بذلك الذبح الفداء أيضا دون مطلق الذبح لان اراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع والعبادة له ولهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتى نار من السماء فتاكله ولهذا قال تعالى: (الذين قالوا لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين) وكذلك كانوا اذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغنم ويكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم وأمة محمد ﷺ وسع الله عليهم لكمال يقينهم واخلاصهم وانهم يقاتلون لله ولو أكلوا المغنم ويذبحون لله ولو أكلوا القربان ولهذا كان عباد الشيطان والاصنام يذبحون لها الذبائح أيضا فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ولا أن يسمى غير الله على الذبائح وحرم سبحانه ماذبح على النصب وهو ماذبح لغير الله وماسمى عليه غير اسم الله وان قصد به اللحم لا القربان ولعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من ذبح لغير الله ونهى عن ذبائح الجن وكانوا يذبحون للجن بل حرم الله مالم يذكر اسم الله عليه مطلقا كما دل على ذلك الكتاب والسنة فى غير موضع وقد قال تعالى: (فصل لربك وانحر) أى انحر لربك كما قال الخليل (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) وقد قال هو واسمعيل اذ يرفعان القواعد من البيت (ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا) فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها كما قال تعالى: (ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) وقال: (ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من

بهيمة الانعام) وقال: (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) كما قال تعالى : (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) فالمقصود تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ماسواه بغاية العبودية له والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والاخلاص وهذه مسألة ابراهيم الخليل وهذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هى الأصل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب» والنية والقصد هى عمل القلب فلابد فى المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم من اعتبار النية والقصد ومن هذا الباب ان النبى صلى الله عليه وسلم لما احتجم وأمر بالحجامة وقال فى الحديث الصحيح «شفاء أمتى فى شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وما أحب أن اكتوى» كان معلوما ان المقصود بالحجامة اخراج الدم الزائد الذى يضر البدن فهذا هو المقصود وخص الحجامة لان البلاد الحارة يخرج الدم فيها الى سطح البدن فيخرج بالحجامة فلهذا كانت الحجامة فى الحجاز ونحوه من البلاد الحارة يحصل بها مقصود استفراغ الدم وأما البلاد الباردة فالدم يغور فيها الى العروق فيحتاجون الى قطع العروق بالفصاد وهذا أمر معروف بالحس والتجربة فانه فى زمان البرد تسخن الاجواف وتبرد الظواهر لان شبيه الشىء منجذب اليه فاذا برد الهواء برد مايلاقيه من الابدان والارض فيهرب الحر الذى فيها من البرد المضاد له الى الاجواف فيسخن باطن الارض وأجواف الحيوان ويأوى الحيوان فى الاكنان الدافية ولقوة الحرارة فى باطن الانسان يأكل فى الشتاء وفى البلاد الباردة اكثر مما يأكل فى الصيف وفى البلاد الحارة لأن الحرارة تطبخ الطعام وتصرفه ويكون الماء النابع فى الشتاء سخنا لسخونة جوف الارض والدم سخن فيكون فى جوف العروق لا فى سطح الجلد فلو احتجم

لم ينفعه ذلك بل قد يضره وفى الصيف والبلاد الحارة تسخن الظواهر فتكون البواطن باردة فلا ينهضم الطعام فيها كما ينهضم فى الشتاء ويكون الماء النابع بارداً لبرودة باطن الارض وتظهر الحيوانات الى البرأى لسخونة الهواء فهؤلاء قد لا ينفعهم الفصاد بل قد يضرهم والحجامة أنفع لهم، وقوله «شفاء أمتى» اشارة الى من كان حينئذ من أمته وهم كانوا بالحجاز كما قال ما بين المشرق والمغرب قبلة لان هذا كان قبلة أمتى حينئذ لانهم كانوا بالمدينة وما حولها وهذا كما أنه فى آخر الأمر بعد ان فرض الحج سنة تسع أو سنة عشر وقت ثلاث مواقيت للمدينة ولنجد وللشام ولما فتح اليمن وقت لهم يلملم ثم وقت ذات عرق لأهل العراق وهذا كما أنه فرض صدقة الفطر صاعا من تمر أوصاعا من شعير عن كل صغير وكبير ذكرا وانثى من المسلمين وكان هذا هو الفرض على اهل المدينة لان الشعير والتمر كان قوتهم ولهذا كان جماهير العلماء على أنه من اقتات الأرز والذرة ونحو ذلك يخرج من قوته وهو احدى الروايتين عن أحمد وهل يجزيه أن يخرج التمر والشعير اذا لم يكن يقتاته فيه قولان للعلماء وكان الصحابة يرمون بالقوس العربية الطويلة التى تشبه قوس الندف وفتح الله لهم بها البلاد وقد رويت آثار فى كراهة الرمى بالقوس الفارسية عن بعض السلف لكونها كانت شعار الكفار فاما بعد ان اعتادها المسلمون وكثرت فيهم وهى فى أنفسها أنفع فى الجهاد من تلك القوس فلا تكره فى أظهر قول العلماء أوقول أكثرهم لأن الله تعالى قال (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) ٭

والقوة فى هذا أبلغ بلا ريب والصحابة لم تكن هذه عندهم فعدلوا عنها الى تلك بل لم يكن لهم غيرها فينظر فى قصدهم بالرمى أكان لحاجة اليها اذ ليس لهم غيرها أم كان لمعنى فيها ومن كره الرمى بها كرهه

لمعنى لازم كما يكره الكفر وما يستلزم الكفر أم كرهها لكونها كانت من شعائر الكفار فكره التشبه بهم وهذا كما أن الكفار من اليهود والنصارى اذا لبسوا ثوب الغيار من أصفر وأزرق نهى عن لباسه لما فيه من التشبه بهم وان كان لو خلا عن ذلك لم يكره وفى بلاد لا يلبس هذه الملابس عندهم الا الكفار فنهى عن لبسها والذين اعتادوا ذلك من المسلمين لا مفسدة عندهم فى لبسها ولهذا كره أحمد وغيره لباس السواد لما كان فى لباسه تشبه بمن يظلم أو يعين على الظلم وكره بيعه لمن يستعين بلبسه على الظلم فاما اذا لم يكن فيه مفسدة لم ينه عنه وكره من كره من الصحابة والتابعين بيع الارض الخراجية لان المشترى لها اذا أدى الخراج عنها أشبه أهل الذمة فى التزام الجزية فان الخراج جزية الارض وان لم يؤدها ظلم الناس باسقاط حقهم من الارض لم يكرهوا بيعها لكونها وقفا فان الوقف انما منع من بيعه لأن ذلك يبطل الوقف ولهذا لا يباع ولا يوهب ولا يورث والارض الخراجية تنتقل الى الوارث باتفاق العلماء ويجوز هبتها والمتهب والمشترى يقوم فيها مقام البائع فيؤدى ما كان عليه من الخراج وليس فى بيعها مضرة لمستحقى الخراج كما فى بيع الوقف وقد غلط كثير من الفقهاء فظنوا أنهم كرهوا بيعها لكونها وقفا واشتبه عليهم الأمر لأنهم رأوا الآثار مروية فى كراهة بيعها وقد عرفوا أن عمر جعلها فيئا لم يقسمها قط وذلك فى معنى الوقف فظنوا ان بيعها مكروه لهذا المعنى ولم يتأملوا حق التأمل فيرون أن هذا البيع ليس هو من جنس البيع المنهى عنه فى الوقف فان هذه يصرف مغلها الى مستحقها قبل البيع وبعده وعلى حد واحد ليست كالدار التى اذا بيعت تعطل نفعها عن أهل الوقف وصارت للمشترى ، وأعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا مكة انما كره بيع رباعها لكونها فتحت عنوة ولم تقسم أيضا وهم قد قالوا مع

جميع الناس ان الارض العنوة التى جعلت أرضا فيئا يجوز بيع مساكنها ،
والخراج انما جعل على المزارع لا على المساكن فلو كانت مكة قد جعلت
أرضها للمسلمين وجعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها كذلك فكيف
ومكة أقرها النبى صلى الله عليه وسلم بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها ومزارعها
ولم يقسمها ولم يضرب عليها خراجا ، ولهذا قال من قال انها فتحت صلحا
ولا ريب انها فتحت عنوة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة لكن
النبى صلى الله عليه وسلم أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل الامن قاتله ولم يسب لهم ذرية ولا
غنم لهم مالا ، ولهذا سموا الطلقاء . وأحمد وغيره من السلف انما عللوا ذلك
بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين كما قال تعالى (والمسجد
الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) وهذه أى العلة التى
اختصت بها مكة دون سائر الامصار فان الله أوجب حجها على جميع الناس
وشرع اعتمادها دائما فجعلها مشتركة بين جميع عباده كما قال (سواء
العاكف فيه والباد) ولهذا كانت منى وغيرها من المشاعر من سبق الى مكان
فهو أحق به حتى ينتقل عنه كالمساجد ومكة نفسها من سبق الى مكان فهو
أحق به والانسان أحق بمساكنه مادام محتاجا اليها وما استغنى عنه من المنافع
فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج وغيرهم ولهذا كانت الاقوال فى
اجارة دورها وبيع رباعها ثلاثة قيل لا يجوز لا هذا ولا هذا وقيل يجوز
الأمران ، والصحيح أنه يجوز بيع رباعها ولا يجوز اجارتها وعلى هذا تدل
الآثار المنقولة فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضى الله عنهم فان
الصحابة كانوا يتبايعون دورها والدور تورث وتوهب واذا كانت تورث
وتوهب جاز أن تباع بخلاف الوقف فانه لا يباع ولا يورث ولا يوهب ،
وكذلك أم الولد من لم يجوز بيعها لا يجوز هبتها ولا أن تورث ، وأما اجارتها

فقد كانت تدعى السوائب على عهد النبى صلى الله عليه وسلم. وأبى بكر. وعمر من احتاج سكن ومن استغنى أسكن لأن المسلمين كلهم محتاجون الى المنافع فصارت كمنافع الاسواق والمساجد والطرقات التى يحتاج اليها المسلمون فمن سبق الى شىء منها فهو أحق به وما استغنى عنه أخذه غيره بلا عوض ، وكذلك المباحات التى يشترك فيها الناس ويكون المشترى لها استفاد بذلك انه أحق من غيره مادام محتاجا واذا باعها الانسان قطع اختصاصه بها وتوريثه اياها وغير ذلك من تصرفاته ، وهذا له أن لا يبذله الا بعوض والنبى صلى الله عليه وسلم من على أهل مكة فان الاسير يجوز المن عليه للمصلحة وأعطاهم مع ذلك ذراريهم وأموالهم كما من على هوازن لما جاؤا مسلمين باحدى الطائفتين السبى أو المال فاختاروا السبى فأعطاهم السبى وكان ذلك بعد القسمة ، فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم وكان قد قسم المال فلم يرده عليهم ، وقريش لم تحاربه كما حاربته هوازن وهو انما من على من لم يقاتله منهم كما قال : «من أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن» *

فلما كف جمهورهم عن قتاله وعرف أنهم مسلمون أطلقهم ولم يغنم أموالهم ولا حريمهم ولم يضرب الرق لا عليهم ولا على أولادهم بل سماهم الطلقاء من قريش بخلاف ثقيف فانهم سموا العتقاء فانه أعتق أولادهم بعد الاسترقاق والقسمة وكان فى هذا مادل على أن الامام يفعل بالاموال والرجال والعقار والمنقول ماهو أصلح فان النبى صلى الله عليه وآله وسلم فتح خيبر فقسمها بين المسلمين وسبى بعض نسائها وأقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك فلم يسترقهم ومكة فتحها عنوة ولم يقسمها لأجل المصلحة ، وقد تنازع العلماء فى الارض اذا فتحت عنوة هل يجب قسمها كخيبر لانها مغنم أو

قصير فيئا كما دلت عليه سورة الحشر وليست الأرض من المغنم أو يخير الامام فيما بين هذا وهذا على ثلاثة أقوال، وأكثر العلماء على التخيير وهو الصحيح وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد فى المشهور عنه وغيرهما ، ولو فتح الامام بلدا وغلب على ظنه ان اهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم كما فعل النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأهل مكة فانهم أسلموا كلهم بلا خلاف بخلاف أهل خيبر فانه لم يسلم منهم أحد فأولئك قسم أرضهم لأنهم كانوا كفارا مصرين على الكفر وهؤلاء تركها لهم لأنهم كلهم صاروا مسلمين والمقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هى العليا وأن يكون الدين كله لله وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم ليتألفهم على الاسلام فكيف لا يتألفهم بابقاء ديارهم وأموالهم وهم لما حضروا معه حنينا اعطاهم من غنائم حنين ما تألفهم به حتى عتب بعض الانصار كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك «أن ناسا من الانصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى رجالا من قريش المائة من الابل فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم - قال أنس : فحدث ذلك النبى صلى الله عليه وسلم من قولهم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الانصار فجمعهم فى قبة من أدم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما حديث بلغنى عنكم فقال له فقهاء الأنصار اما ذوو رأينا يارسول الله فلم يقولوا شيئاً وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فانى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالاموال وترجعون الى رحالكم برسول الله فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يارسول الله قد رضينا قال فانكم ستجدون بعدى

أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فانى على الحوض قالوا اسنصبر وفى رواية لو سلك الناس واديا أو شعبا وسلكت الانصار واديا أو شعبا لسلكت وادى الانصار وشعبهم الناس دثار والانصار شعار ولولا الهجرة لكنت أمرءا من الانصار وحدثهم حتى بكوا رضى الله تعالى عنهم ❊

فهذا كله بذل وعطاء لأجل اسلام الناس وهو المقصود بالجهاد ومن قال ان الامام يجب عليه قسمة العقار والمنقول مطلقا فقوله فى غاية الضعف مخالف لكتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر وليس معه حجة واحدة توجب ذلك فان قسمة النبى صلى الله عليه وآله وسلم خيبر تدل على جواز ما فعل لا تدل على وجوبه اذ الفعل لا يدل بنفسه على الوجوب وهو لم يقسم مكة ولا شك أنها فتحت عنوة وهذا يعلمه ضرورة من تدبر الاحاديث وكذلك المنقول من قال انه يجب قسمه كله بالتسوية بين الغانمين فى كل غزاة فقوله ضعيف بل يجوز فيه التفضيل للمصلحة كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفضل فى كثير من المغازى والمؤلفة قلوبهم الذين اعطاهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم من غنائم خيبر فيما أعطاهم قولان أحدهما أنه من الخمس والثانى أنه من أصل الغنيمة وهذا أظهر فان الذى أعطاهم اياه هو شىء كثير لا يحتمله الخمس ومن قال العطاء كان من خمس الخمس فلم يدر كيف وقع الامر ولم يقل هذا أحد من المتقدمين هذا مع قوله ليس لى مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم وهذا لأن المؤلفة قلوبهم كانوا من العسكر ففضلهم فى العطاء للمصلحة كما كان يفضلهم فيما يقسمه من الفىء للمصلحة ❊

وهذا دليل على أن الغنيمة للامام أن يقسمها باجتهاده كما يقسم الفىء باجتهاده اذا كان امام عدل قسمها بعلم وعدل ليس قسمتها بين الغانمين كقسمة الميراث بين الورثة وقسمة الصدقات فى الاصنام الثمانية ولهذا قال

فى الصدقات ان الله لم يرض فيها بقسمة نبى ولا غيره ولكن جعلها ثمانية أصناف فان كنت من تلك الاصناف أعطيتك فعلم أن ما أفاء الله من الكفار بخلاف ذلك ، وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر لاهل السفينة الذين قدموا مع جعفر ولم يقسم لأحد غاب عنها غيرهم وقسم من غنائم بدر لطلحة والزبير ولعثمان وكان قد أقام بالمدينة وهؤلاء الذين كانوا يريدون القتال وكانوا مشغولين ببعض مصالح المسلمين الذين هم فيها فى جهاده

وأيضا أهل السفينة وطلحة والزبير وعثمان لم يكونوا كغيرهم والقتال لم يكن لأجل الغنيمة فليست الغنيمة كمباح اشترك فيه ناس مثل الاحتشاش والاحتطاب والاصطياد فان ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال بخلاف الغنيمة بل من قاتل فيها لاجل المال لم يكن مجاهدا فى سبيل الله ولهذا لم تبح الغنائم لمن قبلنا وابيحت لنا معونة على مصلحة الدين *

فالغنائم أبيحت لمصلحة الدين وأهله فمن كان قد نفع المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم جعل منهم وان لم يحضر ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم المسلمون يد واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ويرد متسريهم على قاعدهم فان المتسرى انما تسرى بقوة القاعد فالمعاونون للمجاهدين من المجاهدين ولبسط هذه الأمور موضع آخر والمقصود هنا ذكر متابعة النبي صلى الله عليه وسلم وهو أنه يعتبر فيه متابعته فى قصده فاذا قصد مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سنة وأما اذا صلى فيه اتفاقا من غير قصد لم يكن قصده للعبادة سنة ولهذا لم يكن جمهور الصحابه يقصدون مشابهته فى ذلك وابن عمر رضى الله عنهما مع انه كان يحب مشابهته فى ظاهر الفعل لم يكن يقصد الصلاة الافى الموضع الذى صلى فيه لافى كل موضع نزل به ولهذا رخص أحمد بن حنبل فى ذلك اذا كان شيئاً يسيرا كما فعله ابن عمر ونهى عنه رضى الله عنه اذا كثر لأنه يفضى الى

المفسدة وهى اتخاذ آثار الانبياء مساجد وهى التى تسمى المشاهد وما أحدث فى الاسلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار فهى من البدع المحدثة فى الاسلام من فعل من لم يعرف شريعة الاسلام وما بعث الله به محمدا ﷺ من كمال التوحيد واخلاص الدين لله وسد أبواب الشرك التى يفتحها الشيطان لبنى آدم، ولهذا يوجد من كان أبعد عن التوحيد واخلاص الدين لله ومعرفة دين الاسلام هم أكثر تعظيما لمواضع الشرك فالعارفون بسنة رسول الله ﷺ وحديثه أولى بالتوحيد واخلاص الدين لله وأهل الجهل بذلك أقرب الى الشرك والبدع ولهذا يوجد ذلك فى الرافضة أكثر مما يوجد فى غيرهم لأنهم أجهل من غيرهم وأكثر شركا وبدعا ولهذا يعظمون المشاهد أعظم من غيرهم ويخربون المساجد أكثر من غيرهم فالمساجد لايصلون فيها جمعة ولاجماعة ولايصلون فيها ان صلوا الا أفذاذا وأما المشاهد فيعظمونها أكثر من المساجد حتى قد يرون ان زيارتها أولى من حج بيت الله الحرام ويسمونها الحج الاكبر، وصنف ابن المفيد منهم كتابا سماه مناسك حج المشاهد وذكر فيه من الاكاذيب والاقوال مالا يوجد في سائر الطوائف وان كان فى غيرهم أيضا نوع من الشرك والكذب والبدع لكن هو فيهم أكثر وكلما كان الرجل اتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله واخلاصاله فى الدين واذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك فاذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع مالا يظهر فيمن هو أقرب منه الى اتباع الرسول والله انما أمر في كتابه وسنة رسوله بالعبادة فى المساجد والعبادة فيها أى عمارتها قال تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) ولم يقل مشاهد الله وقال تعالى (قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) ولم يقل عند

كل مشهد فان أهل المشاهد ليس فيهم اخلاص الدين لله بل فيهم نوع من الشرك ، وقال تعالى (ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة) الآيات وفى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان ثم قرأ هذه الآية فان المراد بعمارتها عمارتها بالعبادة فيها كالصلاة والاعتكاف يقال مدينة عامرة اذا كانت مسكونة ومدينة خراب اذا لم يكن فيها ساكن، ومنه قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله) *

وأما نفس بناء المساجد فيجوز أن يبنيها البر والفاجر والمسلم والكافر وذلك يسمى بناء كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة» فبين الله تعالى ان المشركين ما كان لهم عمارة مساجد الله مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر وبين انما يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله وهذه صفة أهل التوحيد واخلاص الدين لله الذين لا يخشون الا الله ولا يرجون سواه ولا يستعينون الا به ولا يدعون الا اياه وعمار المشاهد يخافون غير الله ويرجون غيره ويدعون غيره وهو سبحانه لم يقل انما يعمر مشاهد الله فان المشاهد ليست بيوت الله انما هى بيوت الشرك ولهذا ليس فى القرآن آية فيها مدح المشاهد ولا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك حديث وانما ذكره الله عمن كان قبلنا انهم بنوا مسجدا على قبر أهل الكهف وهؤلاء من الذين نهانا الله أن نتشبه بهم حيث قال صلى الله عليه وسلم: فى الحديث الصحيح ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك *

فى هذا الحديث ذم أهل المشاهد وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة كما قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مافعلوا وقال أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عندالله يوم القيامة» ثم أهل المشاهد كثير من مشاهدهم أو أكثرها كذب فان الشرك مقرون بالكذب فى كتاب الله كثيرا قال تعالى: (واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به) وقال النبى ﷺ: «عدلت شهادة الزور الاشراك بالله» قالها ثلاثا وذلك كالمشهد الذى بنى بالقاهرة على رأس الحسين وهو كذب باتفاق أهل العلم ورأس الحسين لم يحمل الى هناك أصلا وأصله فى عسقلان، وقد قيل أنه كان رأس راهب ورأس الحسين لم يكن بعسقلان وانما أحدث هذا فى أواخر دولة الملاحدة بنى عبيد وكذلك مشهد على رضى الله عنه انما حدث فى دولة بنى بويه، وقال محمد بن عبد الله مطين الحافظ وغيره انما هو قبر المغيرة بن شعبة رضى الله عنه وعلى رضى الله عنه انما دفن فى قصر الامارة والكوفة ودفن معاوية بقصر الامارة بدمشق ودفن عمرو بن العاص بقصر الامارة بمصر خوفا عليهم اذا دفنوا فى المقابر البارزة أن ينبشهم الخوارج المارقون فان الخوارج كانوا تعاهدوا على قتل الثلاثة فقتل ابن ملجم عليا وجرح صاحبه معاوية وعمرو كان استخلف رجلا اسمه خارجة فقتله الخارجى وقال أردت عمرا واراد الله خارجة فسارت مثلا، فالمقصود ان هذا المشهد انما أحدث فى دولة الملاحدة دولة بنى عبيد وكان فيهم من الجهل والضلال ومعاضدة الملاحدة وأهل البدع من المعتزلة والرافضة أمور كثيرة ولهذا كان فى زمنهم قد تضعضع الاسلام تضعضعا كثيرا ودخلت النصارى الى الشام فان بنى عبيد ملاحدة منافقون ليس لهم غرض لا فى الله ولا فى رسوله

ولا فى الجهاد فى سبيل الله بل فى الكفر والشرك ومعاداة الاسلام بحسب
الامكان وأتباعهم كلهم أهل بدع وضلال فاستولت النصارى فى دولتهم
على أكثر الشام ثم قيض الله من ملوك السنة مثل نور الدين وصلاح
الدين واخوته وأتباعهم ففتحوا بلاد الاسلام وجاهدوا الكفار والمنافقين
ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لان المشركين
يسجدون للشمس حينئذ والشيطان يقارنها وان كان المسلم المصلى لا يقصد
السجود لها لكن سد الذريعة لئلا يتشبه بالمشركين فى بعض الأمور التى
يختصون بها فيفضى الى ما هو شرك ولهذا نهى عن تحرى الصلاة فى هذين
الوقتين، هذا لفظ ابن عمر الذى فى الصحيحين فقصد الصلاة فيها منهى عنه
وأما اذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله مثل تحية المسجد وصلاة الكسوف
وسجود التلاوة وركعتى الطواف واعادة الصلاة مع امام الحى ونحو
ذلك فهذه فيها نزاع مشهور بين العلماء والاظهر جواز ذلك واستحبابه
فانه خير لا شر فيه وهو يفوت اذا ترك وانما نهى عن قصد الصلاة وتحريها
فى ذلك الوقت لما فيه من مشابهته الكفار بقصد السجود ذلك الوقت فما
لا سبب له قد قصد فعله فى ذلك الوقت وان لم يقصد الوقت بخلاف ذى
السبب فانه فعل لأجل السبب فلا تأثير فيه للوقت بحال ونهى النبى صلى الله عليه وآله وسلم
عن الصلاة فى المقبرة عموما فقال الارض كلها مسجد الا المقبرة والحمام
رواه أهل السنن وقد روى مسندا ومرسلا وقد صحح الحفاظ انه مسند
فان الحمام مأوى الشياطين والمقابر نهى عنها لما فيه من التشبه بالمتخذين
القبور مساجد وإن كان المصلى قد لا يقصد الصلاة لاجل فضيلة تلك البقعة
بل اتفق لكن فيه تشبه بمن يقصد ذلك فنهى عنه كما ينهى عن الصلاة
المطلقة وقت الطلوع والغروب وان لم يقصد فضيلة ذلك الوقت لما فيه من

التشبه بمن يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون فنهيه عن الصلاة فى هذا الزمان كنهيه عن الصلاة فى ذلك المكان فلما كان الشرك الذى أضل أكثر بنى آدم أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على صورهم فان المشركين قد اعتادوا الهة يلدون ويولدون ويرثون ويورثون ويكونون من شىء من الأشياء فسألوا النبى ﷺ عن الهه الذى يعبده من أى شىء هو أمن كذا أم من كذا ومن ورث الدنيا ولمن يورثها؟ فقال تعالى: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وفى حديث أبى بن كعب لأنه ليس أحد يولد الا يموت ولا أحد يرث إلا يورث يقول كل من عبد من دون الله وقد ولد مثل المسيح والعزير وغيرهما من الصالحين وتماثيلهم ومثل الفراعنة المدعين الآلهية فهذا مولود يموت وهو وان كان ورث من غيره ماهو فيه فاذا مات ورثه غيره والله سبحانه حى لا يموت ولا يورث سبحانه وتعالى.

(تم)

تم بحسن توفيق مولانا جل وعز كتاب تفسير سورة الاخلاص للامام العلامة علامة المعقول والمنقول فخر العلماء ومرجع الفضلاء من بسيرته سارت الركبان ورحلت اليه الرواحل من كل مكان الا وهو مجتهد عصره ونابغة دهره أبى العباس تقى الدين أحمد ابن تيمية الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

فهرست

كتاب تفسير سورة الاخلاص

صفحة

صفحة

﴿ تم الفهرست ﴾

